(٨٩) سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ .

اعلم أن هذه الأشياء التى أقسم الله تعالى بها لابد وأن يكون فيها إما فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد ، أو فائدة دنيوية توجب بعثاً على الشكر ، أو مجموعهما ، ولأجل ما ذكرناه اختلفوا فى تفسير هذه الأشياء اختلافاً شديداً ، فكل أحد فسره بما رآه أعظم درجة فى الدين ، وأكثر منفعة فى الدنيا .

أما قوله (والفجر) فذكروا فيه وجوهاً (أحدها) ما روى عن ابن عباس أن الفجر هو الصبح المعروف ، فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب ، أقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء ، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش فى طلب الأرزاق ، وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم ، وفيه عبرة لمن تأمل ، وهذا كقوله (والصبح إذا أسفر) وقال فى موضع آخر ، والصبح إذا تنفس ، وتمدح فى آية أخرى بكونه خالقاً له ، فقال (فالق الإصباح) ومنهم من قال المراد به جميع النهار إلا أنه دل بالابتداء على الجميع ، نظيره (والضحى) وقوله (والنهار إذا تجلى) و (وثانيها) أن المراد نفس صلاة الفجر وإنما أقسم بصلاة الفجر لأنها صلاة فى مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة النهار وملائكة الليل كما قال تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار القراءة فى صلاة الصبح (وثالثها) أنه فجر يوم معين ، وعلى هذا القول ذكروا وجوهاً (الأول) أنه فجر يوم النحر ، وذلك لأن أمر المناسك من خصائص ملة إبراهيم ، وكانت العرب لا تدع الحج وهو يوم عظيم يأتى الإنسان فيه بالقربان كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه ، فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان ،

كما قال تعالى (وفديناه بذبح عظيم) (الثانى) أراد فجر ذى الحجة لأنه قرن به قوله (وليال عشر) ولأنه أول شهر هذه العبادة المعظمة (الثالث) المراد فجر المحرم ، أقسم به لأنه أول يوم من كل سنة وعند ذلك يحدث أموراً كثيرة مما يتكرر بالسنين كالحج والصوم والزكاة واستئناف الحساب بشهور الأهلة ، وفى الخبر أن أعظم الشهور عند الله المحرم ، وعن ابن عباس أنه قال فجر السنة هو المحرم فجعل جملة المحرم فجراً (ورابعها) أنه عنى بالفجر العيون التى تنفجر منها المياه ، وفيها حياة الخلق ، أما قوله (وليال عشر) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما جاءت منكرة من بين ما أقسم الله به لأنها ليال مخصوصة بفضائل لا تحصل فى غيرها والتنكير دال على الفضيلة العظيمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أنها عشر ذى الحجة لأنها أيام الاشتغال بهذا النسك فى الجملة ، وفى الخبر ما من أيام العمل الصالح فيه أفضل من أيام العشر (وثانيها) أنها عشر المحرم من أوله إلى آخره ، وهو تنبيه على شرف تلك الأيام ، وفيها يوم عاشوراء ولصومه من الفضل ما ورد به الأخبار (وثالثها) أنها العشر الأواخر من شهر رمضان ، أقسم الله تعالى بها لشرفها وفيها ليلة القدر ، إذ فى الخبر اطلبوها فى العشر الأخير من رمضان ، وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد المئزر ، وأيقظ أهله أى كف عن الجماع وأمر أهله بالتهجد ، وأما قوله (والشفع والوتر) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الشفع والوتر ، هو الذى تسميه العرب الخسا والزكا والعامة الزوج والفرد ، قال يونس أهل العالية يقولون الوتر بالفتح فى العدد والوتر بالكسر فى الذحل وتميم تقول وتر بالكسر فيهما معاً ، وتقول أوترته أوتره إيتاراً أى جعلته وتراً ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام « من استجمر فليوتر » والكسر قراءة الحسن والأعمش وابن عباس ، والفتح قراءة أهل المدينة وهى لغة حجازية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اضطرب المفسرون فى تفسير الشفع والوتر ، وأكثروا فيه ، ونحن نرى ما هو الأقرب (أحدها) أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة ، وإنما أقسم الله بهما لشرفهما أما يوم عرفة فهو الذى عليه يدور أمر الحج كما فى الحديث الحج عرفة ، وأما يوم النحر فيقع فيه القربان وأكثر أمور الحج من الطواف المفروض ، والحلق والرمى ، ويروى يوم النحر هو يوم الحج الأكبر فلما اختص هذان اليومان بهذه الفضائل لا جرم أقسم الله بهما (وثانيها) أن أيام التشريق أيام بقية أعمال الحج فهى أيام شريفة ، قال الله تعالى (واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) والشفع هو يومان بعد يوم النحر ، الوتر هو اليوم الثالث ، ومن ذهب إلى هذا القول قال حمل الشفع والوتر على هذا أولى من حملهما على العيد وعرفة من وجهين (الأول) أن العيد وعرفة دخلا فى العشر ، فوجب أن يكون المراد بالشفع والوتر غيرهما

(الثانى) أن بعض أعمال الحج إنما يحصل فى هذه الأيام ، فحمل اللفظ على هذا يفيد القسم بجميع أيام أعمال المناسك (وثالثها) الوتر آدم شفع بزوجته ، وفى رواية أخرى الشفع آدم وحواء والوتر هو الله تعالى (ورابعها) الوتر ما كان وتراً من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعاً منها ، وروى عمران بن الحصين عن النبى ﷺ أنه قال « هى الصلوات منها شفع ومنها وتر » وإنما أقسم الله بها لأن الصلاة تالية للايمان ، ولا يخفى قدرها ومحلها من العبادات (وخامسها) الشفع هو الخلق كله لقوله تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين) وقوله (وخلقناكم أزواجاً) والوتر هو الله تعالى ، وقال بعض المتكلمين لا يصح أن يقال الوتر هو الله لوجوه (الأول) أنا بينا أن قوله (والشفع والوتر) تقديره ورب الشفع والوتر ، فيجب أن يراد بالوتر المربوب فبطل ما قالوه (الثانى) أن الله تعالى لا يذكر مع غيره على هذا الوجه بل يعظم ذكره حتى يتميز من غيره ، وروى أن عليه الصلاة والسلام سمع من يقول الله ورسوله فنهاه ، وقال « قل الله ثم رسوله » قالوا وما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « إن الله وتر يحب الوتر » ليس بمقطوع به (وسادسها) أن شيئاً من المخلوقات لا ينفك عن كونه شفعاً ووتراً فكأنه يقال أقسم برب الفرد والزوج من خلقه فدخل كل الخلق تحته ، ونظيره قوله (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) (وسابعها) الشفع درجات الجنة وهى ثمانية ، والوتر دركات النار وهى سبعة (وثامنها) الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والإرادة والكراهية والحياة والموت ، أما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم ، حياة بلا موت ، علم بلا جهل ، قدرة بلا عجز ، عز بلا ذل (وتاسعها) المراد بالشفع والوتر ، نفس العدد فكأنه أقسم بالحساب الذى لا بد للخلق منه وهو بمنزلة الكتاب والبيان الذى من الله به على العباد إذ قال (علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم) ، وقال (علمه البيان) . وكذلك بالحساب ، يعرف مواقيت العبادات والأيام والشهور ، قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال (لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق) (وعاشرها) قال مقاتل الشفع هو الأيام والليالى والوتر هو اليوم الذى لا ليل بعده وهو يوم القيامة (الحادى عشر) الشفع كل نبى له اسمان مثل محمد وأحمد والمسيح وعيسى ويونس وذى النون والوتر كل نبى له اسم واحد مثل آدم ونوح وإبراهيم (الثانى عشر) الشفع آدم وحواء والوتر مريم (الثالث عشر) الشفع العيون الاثنتا عشرة ، التى فجرها الله تعالى لموسى عليه السلام والوتر ، الآيات التسع التى أوتى موسى فى قوله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) ، (الرابع عشر) الشفع أيام عاد والوتر لياليهم لقوله تعالى (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) (الخامس عشر) الشفع البروج الإثنا عشر لقوله تعالى (جعل فى السماء بروجاً) والوتر الكواكب السبعة (السادس عشر) الشفع الشهر الذى يتم ثلاثين يوماً ، والوتر الشهر الذى يتم تسعة وعشرين يوماً (السابع عشر) الشفع الأعضاء والوتر القلب ، قال تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ، (الثامن عشر) الشفع الشفتان

والوتر اللسان قال تعالى (ولساناً وشفتين) (التاسع عشر) الشفع السجدتان والوتر الركوع (العشرون) الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة ، واعلم أن الذى يدل عليه الظاهر ، أن الشفع والوتر أمران شريفان ، أقسم الله تعالى بهما ، وكل هذه الوجوه التى ذكرناها محتمل ، والظاهر لا إشعار له بشىء من هذه الأشياء على التعيين ، فإن ثبت فى شىء منها خبر عن رسول الله ﷺ أو إجماع من أهل التأويل حكم بأنه هو المراد ، وإن لم يثبت ، فيجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على وجه القطع ، ولقائل أن يقول أيضاً إنى أحمل الكلام على الكل لأن الألف واللام فى الشفع والوتر تفيد العموم ، أما قوله تعالى (والليل إذا يسر) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إذا يسر ، إذا يمضى كما قال (والليل إذا أدبر) وقوله (والليل إذا عسعس) وسراها ومضيها وانقضاؤها أو يقال سراها هو السير فيها ، وقال قتادة (إذا يسر) أى إذا جاء وأقبل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة بل العموم بدليل قوله (والليل إذا أسفر ـ والليل إذا عسعس) ولأن نعمة الله بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما على الخلق عظيمة ، فصح أن يقسم به لأن فيه تنبيهاً على أن تعاقبهما بتدبيره مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات ، وقال مقاتل هى ليلة المزدلفة فقوله (إذا يسر) أى إذا يسار فيه كما يقال ليل نائم لوقوع النوم فيه ، وليل ساهر لوقوع السهر فيه ، وهى ليلة يقع السرى فى أولها عند الدفع من عرفات إلى المزدلفة ، وفى آخرها كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم ضعفة أهله فى هذه الليل ، وإنما يجوز ذلك عند الشافعى رحمه الله بعد نصف الليل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الزجاج قرىء (إذا يسرى) بإثبات الياء ، ثم قال وحذفها أحب إلى لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياءات ، ويدل عليها الكسرات ، قال الفراء : والعرب قد تحذف الياء وتكتفى بكسرة ما قبلها ، وأنشد :

كفاك كف ما يبقى درهما جوداً وأخرى تعط بالسيف الدما

فإذا جاز هذا فى غير الفاصلة فهو فى الفاصلة أولى ، فإن قيل لم كان الاختيار أن تحذف الياء إذا كان فى فاصلة أو قافية ، والحرف من نفس الكلمة ، فوجب ان يثبت كما أثبت سائر الحروف ولم يحذف ؟ أجاب أبو على فقال القول فى ذلك أن الفواصل والقوافى موضع وقف والوقف موضع تغيير فلما كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان وروم الحركة فيها غيرت هذه الحروف المشابهة للزيادة بالحذف ، وأما من أثبت الياء فى يسرى فى الوصل والوقف فإنه يقول الفعل لا يحذف منه فى الوقف كما يحذف فى الأسماء نحو قاض وغاز ، تقول هو يقضى وأنا أقضى فتثبت الياء ولا تحذف .

قوله تعالى :﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الحجر العقل سمى به لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ لبالمرصاد

لأنه يعقل ويمنع وحصاة من الإحصاء وهو الضبط ، قال الفراء والعرب تقول إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها كأنه أخذ من قولهم حجرت على الرجل ، وعلى هذا سمي العقل حجراً لأنه يمنع من القبيح من الحجر وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (هل فى ذلك قسم) استفهام والمراد منه التأكيد كمن ذكر حجة باهرة ، ثم قال هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية ، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه . قال القاضي وهذه الآية تدل على ماقلنا : أن القسم واقع برب هذه الأمور لأن هذه الآية دالة على أن هذا مبالغة فى القسم . ومعلوم أن المبالغة فى القسم لاتحصل إلا فى القسم بالله ، ولأن النهى قد ورد بأن يحلف العاقل بهذه الأمور .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود ، الذين جابوا الصخرة بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

واعلم أن فى جواب القسم وجهين (الأول) أن جواب القسم هو قوله (إن ربك لبالمرصاد) وما بين الموضعين معترض بينهما (الثانى) قال صاحب الكشاف المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين ، يدل عليه قوله تعالى (ألم تر - إلى قوله - فصب عليهم ربك سوط عذاب) وهذا أولى من الوجه الأول لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب ، فكان أدخل فى التخويف ، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولا هو ذلك .

أما قوله تعالى (ألم تر) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ألم تر ، ألم تعلم لأن ذلك مما لايصح أن يراه الرسول وإنما أطلق لفظ الرؤية ههنا على العلم ، وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر ! أما عاد وثمود فقد كانا فى بلاد العرب وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ، وبلاد فرعون أيضاً

متصلة بأرض العرب وخبر التواتر يفيد العلم الضرورى ، والعلم الضرورى جار مجرى الرؤية فى القوة والجلاء والبعد عن الشبهة ، فلذلك قال (ألم تر) بمعنى ألم تعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ألم تر) وإن كان فى الظاهر خطاباً للنبى صلى الله عليه وسلم لكنه عام لكل من علم ذلك . والمقصود من ذكر الله تعالى حكايتهم أن يكون زجراً للكفار عن الإقامة على مثل ما أدى إلى هلاك عاد وثمود وفرعون وقومه ، وليكون بعثاً للمؤمنين على الثبات على على الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ بعاد ، إرم ذات العماد ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنه تعالى ذكر ههنا قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين وهى عاد وثمود وقوم فرعون على سبيل الإجمال حيث قال (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ولم يبين كيفية ذلك العذاب ، وذكر فى سورة الحاقة بيان ما أبهم فى هذه السورة فقال (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ـ إلى قوله ـ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ عاد هو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح ، ثم إنهم جعلوا لفظة عاد اسما للقبيلة كما يقال لبنى هاشم هاشم ولبنى تميم تميم ، ثم قالوا للمتقدمين من هذه القبيلة عاد الأولى قال تعالى (وأنه أهلك عاد الأولى) وللمتأخرين عاد الأخيرة ، وأما إرم فهو اسم لجد عاد ، وفى المراد منه فى هذه الآية أقوال (أحدها) أن المتقدمين من قبيلة عاد كانوا يسمون بعاد الأولى فلذلك يسمون بإرم تسمية لهم باسم جدهم (والثانى) أن إرم اسم لبلدتهم التى كانوا فيها ثم قيل تلك المدينة هى الاسكندرية وقيل دمشق (والثالث) أن إرم أعلام قوم عاد كانوا يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور ، قال أبو الدقيش : الأروم قبور عاد ، وأنشد

بها أروم كهوادى البخث

ومن الناس من طعن فى قول من قال إن إرم هى الإسكندرية أو دمشق ، قال لأن منازل عاد كانت بين عمان إلى حضرموت وهى بلاد الرمال والأحقاف ، كما قال واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) وأما الإسكندرية ودمشق فليستا من بلاد الرمال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إرم لا تنصرف قبيلة كانت أو أرضاً للتعريف والتأنيث .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى قوله (إرم) وجهان وذلك لأنا إن جعلناه اسم القبيلة كان قوله (إرم) عطف بيان لعاد وإيذاناً بأنهم عاد الأولى القديمة وإن جعلناه اسم البلدة أو الأعلام كان التقدير بعاد أهل إرم ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، كما فى قوله (واسأل القرية) ويدل عليه قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرأ الحسن (بعاد إرم) مفتوحين وقرىء (بعاد إرم) بسكون الراء على

التخفيف كما قرىء (بورقكم) وقرىء (بعاد إرم ذات العماد) بإضافة (إرم) إلى (ذات العماد) وقرىء (بعاد إرم ذات العماد) بدلا من فعل ربك ، والتقدير : ألم تر كيف فعل ربك بعاد جعل ذات العماد رميما ، أما قوله (ذات العماد) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى إعرابه وجهان وذلك لأنا إن جعلنا (ارم) اسم القبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين يسكنون الأخبية والخيام والخباء لابد فيها من العماد ، والعماد بمعنى العمود . وقد يكون جمع العمد أو يكون المراد بذات العماد أنهم طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة وقيل ذات البناء الرفيع ، وإن جعلناه اسم البلد ، فالمعنى أنها ذات أساطين أى ذات أبنية مرفوعة على العمد وكانوا يعالجون الأعمدة فينصبونها ويبنون فوقها القصور ، قال تعالى فى وصفهم (أتبنون بكل ريع آية تعبثون) أى علامة وبناء رفيعاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها . فسمع بذكر الجنة فقال ابنى مثلها ، فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار ، فلما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ، وعن عبدالله ابن قلابة أنه خرج فى طلب إبل له فوصل إلى جنة شداد فحمل ما قدر عليه مما كان هناك وبلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه ، فبعث إلى كعب فسأله ، فقال هى إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال ، يخرج فى طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن [أبى] قلابة فقال هذا والله هو ذلك الرجل

أما قوله (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) فالضمير فى مثلها إلى ماذا يعود ؟ فيه وجوه : (الأول) (لم يخلق مثلها) أى مثل عاد فى البلاد فى عظم الجثة وشدة القوة ، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الجمع فيهلكوا (الثانى) لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا . وقرأ ابن الزبير (لم يخلق مثلها) أى لم يخلق الله مثلها (الثالث) أن الكناية عائدة إلى العماد أى لم يخلق مثل تلك الأساطين فى البلاد ، وعلى هذا فالعماد جمع عمد ، والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فإنه تعالى بين أنه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل ، مع الذى اختصوا به من هذه الوجوه ، فلأن تكونوا خائفين من مثل ذلك أيها الكفار إذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم كان أولى . أما قوله تعالى (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) فقال الليث : الجوب قطعك الشىء كما يجاب الجيب يقال جاب يجوب جوباً . وزاد الفراء يجيب جيباً ويقال جبت البلاد جوباً أى جلت فيها وقطعتها ، قال ابن عباس كانوا يجوبون البلاد فيجعلون منها بيوتاً وأحواضاً وما أرادوا من الأبنية ، كما قال (وتنحتون من الجبال بيوتاً) قيل أول من نحت الجبال والصخور والرخام

ثمود ، وبنوا ألفاً و سبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، وقوله (بالواد) قال مقاتل بوادى القرى .

وأما قوله تعالى (وفرعون ذى الأوتاد) فالاستقصاء فيه مذكور فى سورة ص ، ونقول الآن فيه وجوه (أحدها) أنه سمى ذا الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التى كانوا يضربونها إذا نزلوا (وثانيها) أنه كان يعذب الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا ، روى عن أبى هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس فرفعت رأسها إلى السماء وقالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ، ففرج الله عن بيتها فى الجنة فرأته (وثالثها) ذى الأوتاد ، أى ذى الملك والرجال ، كما قال الشاعر :

فى ظل ملك راسخ الأوتاد

(ورابعها) روى قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن تلك الأوتاد كانت ملاعب يلعبون تحتها لأجله ، واعلم أن الكلام محتمل لكل ذلك ، فبين الله تعالى لرسوله أن كل ذلك مما تعظم به الشدة والقول والكثرة لم يمنع من ورود هلاك عظيم بهم ، ولذلك قال تعالى (الذين طغوا فى البلاد) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يحتمل أنه يرجع الضمير إلى فرعون خاصة لأنه يليه ، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم ، وهذا هو الأقرب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أحسن الوجوه فى إعرابه أن يكون فى محل النصب على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على [الإخبار ، أى] هم الذين طغوا أو مجروراً على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ طغوا فى البلاد . أى عملوا المعاصى وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى (فأكثروا فيها الفساد) ضد الصلاح فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر ، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم ، فمن عمل بغير أمر الله وحكم فى عباده بالظلم فهو مفسد ثم قال تعالى (فصب عليهم ربك سوط عذاب) واعلم أنه يقال صب عليه السوط وغشاه وقنعه ، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . قال القاضى وشبهه بصب السوط الذى يتواتر على المضروب فيهلكه ، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال إن عند الله أسواطاً كثيرة فأخذهم بسوط منها ، فإن قيل : أليس أن قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة) يقتضى تأخير العذاب إلى الآخرة فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ؟ قلنا هذه الآية تقتضى تأخير تمام الجزاء إلى الآخرة والواقع فى الدنيا شىء من ذلك ومقدمة من مقدماته . ثم قال تعالى (إن ربك لبالمرصاد) تقدم عند قوله (كانت مرصاداً) ونقول : المرصاد المكان الذى يترقب فيه الراصد مفعال من رصده كالميقات من وقته ، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه ، وعن بعض العرب أنه قيل له : أين ربك ؟ فقال بالمرصاد ، وللمفسرين فيه وجوه (أحدها)

فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾

قال الحسن يرصد أعمال بني آدم (وثانيها) قال الفراء : إليه المصير ، وهذان الوجهان عامان للمؤمنين والكافرين ، ومن المفسرين من يخص هذه الآية إما بوعيد الكفار ، أو بوعيد العصاة ، أما الأول فقال الزجاج يرصد من كفر به وعدل عن طاعته بالعذاب ، وأما الثاني فقال الضحاك يرصد لأهل الظلم والمعصية ، وهذه الوجوه متقاربة .

قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ﴾ ،

اعلم أن قوله (فأما الإنسان) متعلق بقوله (إن ربك لبالمرصاد) كأنه قيل إنه تعالى لبالمرصاد في الآخرة ، فلا يريد إلا السعي للآخرة فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها ، فإن وجد الراحة في الدنيا يقول ربي أكرمني ، وإن لم يجد هذه الراحة يقول ربي أهانني ، ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) وقال (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) وهذا خطأ من وجوه (أحدها) أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر ، فالمتنعم في الدنيا لو كان شقياً في الآخرة فذاك التنعم ليس بسعادة ، والمتألم المحتاج في الدنيا لو كان سعيداً في الآخرة فذاك ليس بإهانة ولا شقاوة ، إذ المتنعم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالسعادة والكرامة ، والمتألم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالشقاوة والهوان (وثانيها) أن حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لا يدل على الاستحقاق فإنه تعالى كثيراً ما يوسع على العصاة والكفرة ، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإما بحكم المصلحة ، وإما على سبيل الاستدراج والمكر ، وقد يضيق على الصديقين لأضداد ما ذكرنا ، فلا ينبغي للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة (وثالثها) أن المتنعم لا ينبغي أن يغفل عن العاقبة ، فالأمور بخواتيمها ، والفقير والمحتاج لا ينبغي أن يغفل عما لله عليه من النعم التي لا حد لها ، من سلامة البدن والعقل والدين ودفع الآفات والآلام التي لا حد لها ولا حصر ، فلا ينبغي أن يقضي على نفسه بالإهانة مطلقاً (ورابعها) أن النفس قد ألفت هذه المحسوسات ، فمتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها ، أما إذا لم يحصل للانسان شيء من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم أبت إلى الله ، واشتغلت بعبودية الله فكان وجدان الدنيا سبباً للحرمان من الله ، فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والإهانة عند عدم الدنيا ، مع أن ذلك

أعظم الوسائل إلى أعظم السعادات (وخامسها) أن كثرة الممارسة سبب لتأكد المحبة ، وتأكد المحبة سبب لتأكد الألم عند الفراق ، فكل من كان وجدانه الدنيا أكثر وأدوم كانت محبته لها أشد ، فكان تألمه بمفارقتها عند الموت أشد ، والذى بالضد فبالضد ، فإذن حصول لذات الدنيا سبب للألم الشديد بعد الموت ، وعدم حصولها سبب للسعادة الشديدة بعد الموت ، فكيف يقال إن وجدان الدنيا سعادة وفقدانها شقاوة ؟ .

واعلم أن هذه الوجوه إنما تصح مع القول بإثبات البعث روحانياً كان أو جسمانياً ، فأما من ينكر البعث من جميع الوجوه فلا يستقيم على قوله شيء من هذه الوجوه ، بل يلزمه القطع بأن وجدان الدنيا هو السعادة وفقدانها هو الشقاوة ، ولكن فيه دقيقة أخرى وهى أنه ربما كان وجدان الدنيا الكثيرة سبباً للقتل والنهب والوقوع فى أنواع العذاب ، فربما كان الحرمان سبباً لبقاء السلامة ، فعلى هذا التقدير لا يجوز أيضاً لمنكر البعث من جميع الوجوه أن يقضى على صاحب الدنيا بالسعادة ، وعلى فاقدها بالهوان ، فربما ينكشف له أن الحال بعد ذلك بالضد ، وفى الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (فأما الإنسان) المراد منه شخص معين أو الجنس ؟ (الجواب) فيه قولان (الأول) أن المراد منه شخص معين ، فروى عن ابن عباس أنه عتبة بن ربيعة ، وأبو حذيفة ابن المغيرة ، وقال الكلبي هو أبى بن خلف ، وقال مقاتل نزلت فى أمية بن خلف (والقول الثانى) أن المراد من كان موصوفاً بهذا الوصف وهو الكافر الجاحد ليوم الجزاء .

﴿ السؤال الثانى ﴾ كيف سمى بسط الرزق وتقديره ابتلاء ؟ (الجواب) لأن كل واحد منهما اختبار للعبد ، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر ، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع ، فالحكمة فيهما واحدة ، ونحوه قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لما قال (فأكرمه) فقد صحح أنه أكرمه . وأثبت ذلك ثم إنه لما حكى عنه أنه قال (ربى أكرمن) ذمه عليه فكيف الجمع بينهما ؟ (والجواب) لأن كلمة الإنكار هى قوله (كلا) فلم لا يجوز أن يقال إنها مختصة بقوله (ربى أهانن) سلمنا أن الإنكار عائد إليهما معاً ولكن فيه وجوه ثلاثة (أحدها) أنه اعتقد حصول الاستحقاق فى ذلك الإكرام (الثانى) أن نعم الله تعالى كانت حاصلة قبل وجدان المال ، وهى نعمة سلامة البدن والعقل والدين ، فلما لم يعترف بالنعمة إلا عند وجدان المال ، علمنا أنه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله ، بل التصلف بالدنيا والتكثر بالأموال والأولاد (الثالث) أن تصلفه بنعمة الدنيا وإعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكراً للبعث ، فلا جرم استحق الذم على ما حكى الله تعالى ذلك ، فقال (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة) إلى قوله (أكفرت بالذى خلقك من تراب) .

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال فى القسم الأول (إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه) وفى القسم الثانى (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه) فذكر الأول بالفاء والثانى بالواو ؟ (والجواب) لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام ، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم وقلة الثانى على ما قال (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) .

﴿ السؤال الخامس ﴾ لما قال فى القسم الأول (فأكرمه فيقول ربى أكرمن) يجب أن يقول فى القسم الثانى (فأهانه) فيقول (ربى أهانن) لكنه لم يقل ذلك (والجواب) لأنه فى قوله (أكرمن) صادق وفى قوله (أهانن) غير صادق فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة ، وهذا جهل واعتقاد فاسد ، فكيف يحكى الله سبحانه ذلك عنه .

﴿ السؤال السادس ﴾ ما معنى قوله فقدر عليه رزقه ؟ (الجواب) ضيق عليه بأن جعله على مقدار البلغة ، وقرىء فقدر على التخفيف وبالتشديد أى قتر ، وأكرمن وأهانن بسكون النون فى الوقف فيمن ترك الياء فى الدرج مكتفياً منها بالكسرة .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حباً جماً ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الشبهة قال (كلا) وهو ردع للانسان عن تلك المقالة ، قال ابن عباس المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته على ، ولم أبتله بالفقر لهوانه على ، بل ذلك إما على مذهب أهل السنة ، فمن محض القضاء أو القدر والمشيئة ، والحكم الذى تنزه عن التعليل بالعلل ، وإما على مذهب المعتزلة فبسبب مصالح خفية لا يطلع عليها إلا هو ، فقد يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويقتر على المؤمن لا لهوانه ، ثم إنه تعالى لما حكى من أقوالهم تلك الشبهة فكأنه قال بل لهم فعل هو شر من هذا القول ، وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال ، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم ، فقال (بل لا يكرمون اليتيم وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ أبو عمرو (يكرمون) وما بعده بالياء المنقوطة من تحت ، وذلك أنه لما تقدم ذكر الإنسان ، وكان يراد به الجنس والكثرة ، وهو على لفظة الغيبة حمل يكرمون ويحبون عليه ، ومن قرأ بالتاء فالتقدير قل لهم يا محمد ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال مقاتل كان قدامة بن مظعون يتيما فى حجر أمية بن خلف ، فكان يدفعه عن حقه ،

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

واعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه (أحدها) ترك بره ، وإليه الإشارة بقوله (ولا تحاضون على طعام المسكين (والثانى) دفعه عن حقه الثابت له فى الميراث وأكل ماله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وتأكلون التراث أكلا لما) و (الثالث) أخذ ماله منه وإليه الإشارة بقوله (وتحبون المال حباً جما) أى تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم ، أما قوله (ولا تحضون على طعام المسكين) قال مقاتل ولا تطعمون مسكيناً ، والمعنى لا تأمرون بإطعامه كقوله تعالى (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين) ومن قرأ ولا تحاضون أراد تتحاضون فحذف تاء تتفاعلون ، والمعنى (لا يحض بعضكم بعضاً) وفى قراءة ابن مسعود (ولا تحاضون) بضم التاء من المحاضة .

أما قوله ﴿وتأكلون التراث أكلا لما﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قالوا أصل التراث وراث ، والتاء تبدل من الواو المضمومة نحو تجاه ووجاه من واجهت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الليث اللم الجمع الشديد ، ومنه كتيبة ملمومة وحجر ملموم ، والآكل يلم الثريد فيجعله لقما ثم يأكله ويقال لممت ما على الخوان ألمه أى أكلته أجمع ، فمعنى اللم فى اللغة الجمع ، وأما التفسير ففيه وجوه (أحدها) قال الواحدى والمفسرون يقولون فى قوله (أكلا لما)أى شديداً وهو حل معنى وليس بتفسير ، وتفسيره أن اللم مصدر جعل نعتاً للأكل ، والمراد به الفاعل أى آكلا لا ما أى جامعاً كأنهم يستوعبونه بالأكل ، قال الزجاج كانوا يأكلون أموال اليتامى إسرافاً وبداراً ، فقال الله (وتأكلون التراث أكلا لماً) أى تراث اليتامى لما أى تلمون جميعه ، وقال الحسن أى يأكلون نصيبهم ونصيب صاحبهم ، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم (وثانيها) أن المال الذى يبقى من الميت بعضه حلال ، وبعضه شبهة وبعضه حرام ، فالوارث يلم الكل أى يضم البعض إلى البعض ويأخذ الكل ويأكله (وثالثها) قال صاحب الكشاف ، ويجوز أن يكون الذم متوجهاً إلى الوارث الذى ظفر بالمال سهلا مهلا من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف فى أنفاقه ويأكله أكلا لماً واسعاً ، جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربه والفواكه ، كما يفعله الوراث البطالون .

قوله تعالى : ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ فاعلم أن الجم هو الكثرة يقال جم الشيء يجم جموماً يقال ذلك فى المال وغيره فهو شيء جم وجام وقال أبو عمرو جم يجم أى يكثر ، والمعنى : وتحبون المال حباً كثيراً شديداً ، فبين أن حرصهم على الدنيا فقط وأنهم عادلون عن أمر الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجيء يومئذ

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾

بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ .

اعلم أن قوله (كلا) ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم أى لا ينبغى أن يكون الأمر هكذا فى الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تهيأ من حل أو حرام ، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء . فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة ويتمنى أن لو كان أفنى عمره فى التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى الله تعالى ، ثم بين أنه إذا جاء يوم موصوف بصفات ثلاثة فإنه يحصل ذلك التمنى وتلك الندامة .

﴿ الصفة الأولى ﴾ من صفات ذلك اليوم قوله (إذا دكت الأرض دكا دكا) قال الخليل الدك كسر الحائط والجبل والدكداك رمل متلبد ، ورجل مدك شديد الوطء على الأرض ، وقال المبرد الدك حط المرتفع بالبسط واندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره ، وناقة دكاء إذا كانت كذلك ومنه الدكان لا ستوائه فى الانفراش . فمعنى الدك على قول الخليل كسر كل شيء على وجه الأرض من جبل أو شجر حين زلزلت فلم يبق على ظهرها شيء ، وعلى قول المبرد معناه أنها استوت فى الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصخرة الملساء ، وهذا معنى قول ابن عباس : تمد الأرض يوم القيامة .

واعلم أن التكرار فى قوله (دكا دكا) معناه دكا بعد دك كقولك حسبته بابا بابا وعلمته حرفا حرفا أى كرر عليها الدك حتى صارت هباء منثوراً . واعلم أن هذه التدكدك لابد وأن يكون متأخراً عن الزلزلة ، فاذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة وحركت تحريكا بعد تحريك انكسرت الجبال التى عليها وانهدمت التلال وامتلأت الأغوار وصارت ملساء ، وذلك عند انقضاض الدنيا وقد قال تعالى (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) وقال (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) وقال (إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ من صفات ذلك اليوم قوله (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)

واعلم أنه ثبت بالدليل العقلى أن الحركة على الله تعالى محال ، لأن كل ما كان كذلك كان جسما والجسم يستحيل أن يكون أزليا فلابد فيه من التأويل ، وهو أن هذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، ثم ذلك المضاف ما هو ؟ فيه وجوه (أحدها) وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة (وثانيها) وجاء قهر ربك كما يقال جاءتنا بنو أمية أى قهرهم (وثالثها) وجاء جلائل آيات ربك لأن هذا يكون يوم القيامة ، وفى ذلك اليوم تظهر العظائم وجلائل الآيات ، فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيما لشأن تلك الآيات (ورابعها) وجاء ظهور ربك ، وذلك لأن معرفة الله تصير فى ذلك اليوم ضرورية فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق ، فقيل (وجاء ربك) أى زالت الشبهة وارتفعت

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾

الشكوك (خامسها) أن هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه ، مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة مالا يظهر بحضور عساكره كلها (وسادسها) أن الرب هو المربى ، ولعل ملكا هو أعظم الملائكة هو مربى للنبى ﷺ جاء فكان هو المراد من قوله (وجاء ربك)

أما قوله (والملك صفاً صفاً) فالمعنى أنه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف محدقين بالجن والإنس .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات ذلك اليوم قوله تعالى (وجىء يومئذ بجهنم) ونظيره قوله تعالى (وبرزت الجحيم للغاوين) قال جماعة من المفسرين : جىء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع ، قال الأصوليون ، ومعلوم أنها لا تنفك عن مكانها ، فالمراد (وبرزت) أى ظهرت حتى رآها الخلق ، وعلم الكافر أن مصيره إليها ، ثم قال (يومئذ يتذكر الإنسان) واعلم أن تقدير الكلام : إذا دكت الأرض ، وحصل كذا وكذا فيومئذ يتذكر الإنسان ، وفى تذكره وجوه (الأول) أنه يتذكر ما فرط فيه لأنه حين كان فى الدنيا كانت همته تحصيل الدنيا ، ثم إنه فى الآخرة يتذكر أن ذلك كان ضلالا ، وكان الواجب عليه أن تكون همته تحصيل الآخرة (الثانى) يتذكر أى يتعظ ، والمعنى أنه ماكان يتعظ فى الدنيا فيصير فى الآخرة متعظاً فيقول (ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا) . (الثالث) يتذكر يتوب وهو مروى عن الحسن ، ثم قال تعالى (وأنى له الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين) .

واعلم أن بين قوله (يتذكر) وبين قوله (وأنى له الذكرى) تناقضاً فلا بد من إضمار المضاف والمعنى ومن أين له منفعة الذكرى .

ويتفرع على هذه الآية مسألة أصولية ، وهى أن قبول التوبة عندنا غير واجب على الله عقلا ، وقالت المعتزلة : هو واجب ، فنقول الدليل على قولنا أن الآية دلت ههنا على أن الإنسان يعلم فى الآخرة أن الذى يعمله فى الدنيا لم يكن أصلح له وأن الذى تركه كان أصلح له ، ومهما عرف ذلك لابد وأن يندم عليه ، وإذا حصل الندم فقد حصلت التوبة ، ثم إنه تعالى نفى كون تلك التوبة نافعة بقوله (وأنى له الذكرى) فعلمنا أن التوبة لا يجب عقلا قبولها ، فان قيل القوم إنما ندموا على أفعالهم لا لوجه قبحها بل لترتب العقاب عليها ، فلا جرم ماكانت التوبة صحيحة ؟ قلنا القوم لما علموا أن الندم على القبيح لابد وأن يكون لوجه قبحه حتى يكون نافعاً وجب أن يكون ندمهم واقعاً على هذا الوجه ، فحينئذ يكونون آتين بالتوبة الصحيحة مع عدم القبول فصح قولنا

ثم شرح تعالى مايقوله هذا الإنسان فقال تعالى : ﴿ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ وفيه مسألتان :

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية تاويلات :

﴿ أحدها ﴾ (ياليتنى قدمت) فى الدنيا التى كانت حياتى فيها منقطعة ، لحياتى هذه التى هى دائمة غير منقطعة ، وإنما قال (لحياتى) ولم يقل لهذه الحياة على معنى أن الحياة كأنها ليست إلا الحياة فى الدار الآخرة ، قال تعالى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى لهى الحياة .

﴿ وثانيها ﴾ أنه تعالى قال فى حق الكافر(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) وقال(فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) وقال (ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى) فهذه الآية دلت على أن أهل النار فى الآخرة كأنه لاحياة لهم ، والمعنى فياليتنى قدمت عملا يوجب نجاتى من النار حتى أكون من الأحياء .

﴿ وثالثها ﴾ أن يكون المعنى : فياليتنى قدمت وقت حياتى فى الدنيا ، كقولك جئته لعشر ليال خلون من رجب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان فى أيديهم ومعلقاً بقصدهم وإرادتهم وأنهم ما كانوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصى (وجوابه) أن فعلهم كان معلقاً بقصدهم ، فقصدهم إن كان معلقاً بقصد آخر لزم التسلسل ، وإن كان معلقاً بقصد الله فقد بطل الاعتزال .

قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قراءة العامة يعذب ويوثق بكسر العين فيهما قال مقاتل معناه : فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق ، والمعنى لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله فى العذاب والوثاق ، قال أبو عبيدة هذا التفسير ضعيف لأنه ليس يوم القيامة معذب سوى الله فكيف يقال لا يعذب أحد فى مثل عذابه ، وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه (الأول) أن التقدير لا يعذب أحد فى الدنيا عذاب الله الكافر يومئذ ، ولا يوثق أحد فى الدنيا وثاق الله الكافر يومئذ ، والمعنى مثل عذابه ووثاقه فى الشدة والمبالغة (الثانى) أن المعنى لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد ، أى الأمر يومئذ أمره ولا أمر لغيره (الثالث) وهو قول أبى على الفارسى أن يكون التقدير لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه ، فالضمير فى عذابه عائد إلى الإنسان ، وقرأ الكسائى لا يعذب ولا يوثق بفتح العين فيها واختاره أبو عبيدة ، وعن أبى عمرو أنه رجع إليها فى آخر عمره ، لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأهما بالفتح والضمير للانسان الموصوف ، وقيل هو أبى بن خلف ولهذه القراءة تفسيران (أحدهما) لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه ، لتناهية فى كفره وفساده (والثانى)

يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾

أنه لايعذب أحد من الناس عذاب الكافر ، كقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) قال الواحدى وهذه أولى الأقوال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ العذاب فى القراءتين بمعنى التعذيب والوثاق بمعنى الإيثاق ، كالعطاء بمعنى الإعطاء فى قوله : [أكفراً بعد رد الموت عن] وبعد عطائك المائة الرتاعا

قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما وصف حال من اطمأن إلى الدنيا ، وصف حال من اطمأن إلى معرفته وعبوديته ، فقال (يا أيتها النفس) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ تقدير هذا الكلام . يقول الله للمؤمن (يا أيتها النفس) فإما أن يكلمه إكراماً له كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان ملك ، وقال القفال : هذا وإن كان أمراً فى الظاهر لكنه خبر فى المعنى ، والتقدير أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت إلى الله ، وقال الله لها (فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) قال ومجىء الأمر بمعنى الخبر كثير فى كلامهم ، كقولهم : إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاطمئنان هو الاستقرار والثبات ، وفى كيفية هذا الاستقرار وجوه (أحدها) أن تكون متيقنة بالحق ، فلا يخالجها شك ، وهو المراد من قوله (ولكن ليطمئن قلبى) (وثانيها) النفس الآمنة التى لا يستفزها خوف ولا حزن ، ويشهد لهذا التفسير قراءة أبى ابن كعب يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة وهذه الخاصة قد تحصل عند الموت عند سماع قوله (ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة) وتحصل عند البعث ، وعند دخول الجنة لا محالة (وثالثها) وهو تأويل مطابق للحقائق العقلية ، فنقول القرآن والبرهان تطابقا على أن هذا الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر الله ، أما القرآن فقوله (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وأما البرهان فمن وجهين (الأول) أن القوة العاقلة إذا أخذت تترقى فى سلسلة الأسباب والمسببات ، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكناً لذاته طلب العقل له سبباً آخر ، فلم يقف العقل عنده ، بل لا يزال ينتقل من كل شىء إلى ما هو أعلى منه ، حتى ينتهى فى ذلك الترقى إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات . ومنتهى الضرورات ، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه ، ولم ينتقل عنه إلى غيره ، فإذاً كلما كانت القوة العاقلة ناظرة إلى شىء من الممكنات ملتفتة إليه استحال أن تستقر عنده ، وإذا نظرت إلى جلال واجب الوجود ، وعرفت أن الكل منه استحال أن تنتقل عنه ، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر واجب الوجود (الثانى) أن حاجات العبد غير متناهية وكل ماسوى الله تعالى فهو متناهى البقاء والقوة إلا بإمداد الله ، وغير المتناهى لا يصير مجبوراً

بالمتناهى ، فلا بد فى مقابلة حاجة العبد التى لا نهاية لها من كمال الله الذى لا نهاية له ، حتى يحصل الاستقرار ، فثبت أن كل من آثر معرفة الله لالشيء غير الله فهو غير مطمئن ، وليست نفسه نفساً مطمئنة ، أما من آثر معرفة الله لشيء سواه فنفسه هى النفس المطمئنة ، وكل من كان كذلك كان أنسه بالله وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله ، فلا جرم يخاطب عند مفارقته الدنيا بقوله (ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وهذا كلام لا ينتفع الإنسان به إلا إذا كان كاملا فى القوة الفكرية الإلهية أوفى التجريد والتفريد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن الله تعالى ذكر مطلق النفس فى القرآن فقال (ونفس وما سواها) وقال (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) وقال (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وتارة وصفها بكونها أمارة بالسوء ، فقال (إن النفس لأمارة بالسوء) وتارة بكونها لوامة ، فقال (بالنفس اللوامة) وتارة بكونها مطمئنة كما فى هذه الآية . واعلم أن نفس ذاتك وحقيقتك وهى التى تشير إليها بقولك (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت ، إلاأن المشار إليه بهذه الإشارة ليس هوهذه البنية لوجهين (الأول) أن المشار إليه بقولك (أنا) قد يكون معلوماً حال ماتكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة ، والمعلوم غير ما هو غير معلوم (والثانى) أن هذه البنية متبدلة الأجزاء والمشار إليه بقولك (أنا) غير متبدل ، فانى أعلم بالضرورة أنى أنا الذى كنت موجوداً قبل هذا اليوم بعشرين سنة ، والمتبدل غير ما هو غير متبدل ، فإذاً ليست النفس عبارة عن هذه البنية ، وتقول : قال قوم إن النفس ليست بجسم لأنا قد نعقل المشار إليه بقوله (أنا) حال ما أكون غافلا عن الجسم الذى حقيقته المختص بالحيز الذاهب فى الطول والعرض والعمق . والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، وجواب المعارضة بالنفس مذكور فى كتابنا المسمى بلباب الإشارات ، وقال آخرون بل هو جوهر جسمانى لطيف صاف بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية نورانى سماوى مخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية ، فإذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حياً وإن فارقته صار البدن ميتاً ، وعلى التقدير الاول يكون وصفها بالمجيء والرجوع بمعنى التدبير وتركه ، وعلى التقدير الثانى يكون ذلك الوصف حقيقاً .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ من القدماء من زعم أن النفوس أزلية ، واحتجوا بهذه الآية وهى قوله (ارجعى إلى ربك) فإن هذا إنما يقال لما كان موجوداً قبل هذا البدن .

واعلم أن هذا الكلام يتفرع على أن هذا الخطاب متى يوجد ؟ وفيه وجهان (الأول) أنه إنما يوجد عند الموت ، وههنا تقوى حجة القائلين بتقدم الأرواح على الأجساد ، إلا أنه لا يلزم من تقدمها عليها قدمها (الثانى) أنه إنما يوجد عند البعث والقيامة ، والمعنى : ارجعى إلى ثواب ربك ، فادخلى فى عبادى ، أى ادخلى فى الجسد الذى خرجت منه .

فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

﴿ المسألة الخامسة ﴾ المجسمة تمسكوا بقوله (إلى ربك) وكلمة إلى لانتهاء الغاية (وجوابه) إلى حكم ربك ، أو إلى ثواب ربك أو إلى إحسان ربك (والجواب) الحقيقى المفرع على القاعدة العقلية التى قررناها ، أن القوة العقلية بسيرها العقلى ترتقى من موجود إلى موجود آخر ، ومن سبب إلى سبب حتى تنتهى إلى حضرة واجب الوجود ، فهناك انتهاء الغايات وانقطاع الحركات ، أما قوله تعالى (راضية مرضية) فالمعنى راضية بالثواب مرضية عنك فى الأعمال التى عملتها فى الدنيا ، ويدل على صحة هذا التفسير ، ما روى أن رجلا قرأ عند النبى ﷺ هذه الآيات ، فقال أبو بكر . ما أحسن هذا ! فقال عليه الصلاة والسلام « أما إن الملك سيقولها لك » .

قوله تعالى : ﴿ فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، وقيل فى خبيت بن عدى الذى صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة ، فقال : اللهم إن كان لى عندك خير فحول وجهى نحو بلدتك ، فحول الله وجهه نحوها ، فلم يستطع أحد أن يحوله ، وأنت قد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (ادخلى فى عبادى) أى انضمى إلى عبادى المقربين ، وهذه حالة شريفة ، وذلك لأن الأرواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا المصقولة ، فإذا انضم بعضها إلى البعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض ، فيظهر فى كل واحد منها كل ما ظهر فى كلها ، وبالجملة فيكون ذلك الانضمام سبباً لتكامل تلك السعادات ، وتعاظم تلك الدرجات الروحانية ، وهذا هو المراد من قوله تعالى (فأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين) وذلك هو السعادة الروحانية ، ثم قال (وادخلى جنتى) وهذا إشارة إلى السعادة الجسمانية ، ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عن الموت فى حق السعداء ، لا جرم قال (فادخلى فى عبادى) فذكره بفاء التعقيب ، ولما كانت الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها إلا بعد قيام القيامة الكبرى ، لا جرم قال (وادخلى جنتى) فذكره بالواو لا بالفاء ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة «الفجر»

مكِّيةٌ، وهي ثلاثون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أَقْسَمَ بالفجر. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أقسامٌ خمسةٌ. واختُلِف في «الفجر»؛ فقال قومٌ: الفجر هنا: انفجارُ الظُّلْمةِ عن النهار من كلِّ يومٍ؛ قاله عليٌّ وابن الزُّبير وابن عباس ﷺ[1].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه النهارُ كلُّه، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوَّله[2].

وقال ابن مُحَيْصن عن عطية عن ابن عباس: يعني فجرَ يومِ المحرَّم. ومثلُه قال قتادة. قال: هو فجرُ أوّلِ يومٍ من المحرَّم، منه تنفجرُ السنة[3].

وعنه أيضًا: صلاة الصبح[4].

وروى ابنُ جريجٍ عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريدُ صبيحةَ يومِ النَّحْرِ؛ لأنَّ الله تعالى جلَّ ثناؤه جعل لكلِّ يومٍ ليلةً قَبْلَه، إلاّ يومَ النَّحْرِ لم يَجعَلْ له ليلةً قبله ولا ليلةً بعده؛ لأنَّ يومَ عرفةَ له ليلتان: ليلةٌ قبله وليلةٌ بعده، فَمَن أدركَ الموقفَ ليلةً بعد عرفةَ، فقد أَدْرَكَ الحجَّ إلى طلوع الفجر، فجرِ يومِ النَّحْرِ. وهذا قولُ مجاهد[5].

---

(١) الوسيط ٤/٤٧٨، وزاد المسير ٩/١٠٢ عن ابن عباس، وذكره عن علي بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٦٥.

(٢) النكت والعيون ٦/٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٤/ ٢٤٤.

(٣) الوسيط ٤/٤٧٨.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٤٤.

(٥) ذكره عن مجاهد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤.

وقال عكرمةُ: «والفجر» قال: انْشِقاقُ الفجرِ من يوم جَمْع[١]. وعن محمد بن كعب القُرَظيِّ: «والفجرِ»: آخر أيامِ العَشْرِ، إذا دفَعْتَ من جَمْع.

وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأنَّ الله تعالى قَرَنَ الأيامَ به فقال: «وليالٍ عشرٍ»، أي: ليالِ عشرٍ مِن ذي الحجة[٢]. وكذا قال مجاهدٌ والسدِّيُّ والكلبيُّ في قوله: «وليالٍ عَشْرٍ»: هو عَشْرُ ذي الحجة، وقاله ابن عباس. وقال مسروق: وهي العَشْرُ التي ذَكَرها الله في قصةِ موسى عليه السلام: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف:١٤٢]، وهي أفضلُ أيامِ السَّنة[٣].

وروى أبو الزبير عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «عشر الأضحى»[٤] فهي ليالِ عشر على هذا القول؛ لأنَّ ليلةَ يوم النحر داخلةٌ فيه، إذ قد خصَّها الله بأنْ جَعَلَها موقفاً لمن لم يُدْرِكِ الوقوفَ يومَ عرفةَ. وإنَّما نكِّرتْ ولم تعرَّفْ لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تَسْتَقِلَّ بمعنى الفضيلةِ الذي في التنكير، فنكِّرتْ مِن بينِ ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: هي العشرُ الأواخِرُ من رمضان. وقاله الضحاك[٥].

وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريُّ: هي العشرُ الأَوَّلُ من المحرَّمِ، التي عاشِرُها يومُ عاشوراءَ[٦]. وعن ابن عباس: «وليالِ عشرٍ» ـ بالإضافة ـ يريد: وليالِ أيامِ عشر[٧].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤ بلفظ: طلوعُ الفجر غداةَ جمع. وجمع هو المزدلفة. القاموس (جمع).

(٢) الوسيط ٤/ ٤٧٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٤٥-٣٤٧.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، وسيأتي لفظه بتمامه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٦، وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١، وزاد المسير ٩/ ١٠٤ عن يمان (وهو ابن رئاب)، وحكى الطبري ٢٤/ ٣٤٨ هذا القول دون نسبة ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٤٩. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٠: بعضهم يكتب «ليال» في هذه القراءة دون ياء، وبعضهم قال: وليالي بالياء، وهو القياس.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختُلف في ذلك؛ فرُوي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الشفع والوتر: الصلاةُ؛ منها شَفْعٌ، ومنها وَتْر»[١]. وقال جابر بنُ عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «هو الصبحُ، وعَشْرُ النَّحْرِ، والوتر: يومُ عرفةَ، والشفعُ: يومُ النحر»[٢]. وهو قولُ ابن عباس وعكرمة[٣]. واختاره النحاس، وقال: حديثُ أبي الزبيرِ عن جابرٍ هو الذي صحَّ عن النبيِّ ﷺ، وهو أصحُّ إسناداً من حديث عِمران بن حُصين. فيومُ عرفةَ وترٌ لأنه تاسِعُها، ويومُ النحرِ شفعٌ لأنه عاشِرُها.

وعن أبي أيوب قال: سُئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ فقال: «الشَّفْعُ: يومُ عرفةَ ويومُ النحرِ، والوترُ: ليلةُ يومِ النحر»[٤].

وقال مجاهدٌ وابن عباس أيضاً: الشَّفعُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ:٨]، والوَتْر هو الله عزَّ وجل[٥]. فقيل لمجاهد: أَتَرْوِيهِ عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن النبيِّ ﷺ[٦]. ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروقٌ وأبو صالحٍ وقتادةُ، قالوا: الشفعُ: الخَلْقُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء،

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩١٩)، والترمذي (٣٣٤٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة . اهـ. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عمران.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، واللفظ له ، وسلف قريباً.

(٣) أخرج قولهما الطبري ٢٤/٢٤٩ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٧٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٣٧ : فيه واصل بن السائب وهو متروك.

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٥١ و٣٥٢ .

(٦) لم نقف عليه، وقال البغوي ٤/ ٤٨١ : روي ذلك عن أبي سعيد.

والسماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عزَّ وجلَّ، قال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[1]. وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، واللهُ وِتْرٌ يُحبُّ الوِتر»[2].

وعن ابن عباس أيضاً: الشفعُ: صلاةُ الصبح، والوترُ: صلاةُ المغرب.

وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاةُ المغرب؛ الشفعُ فيها ركعتان، والوترُ الثالثة.

وقال ابن الزُّبير: الشفعُ: يوما مِنًى؛ الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر: الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

وقال الضحاك: الشَّفعُ: عَشْرُ ذي الحجة، والوتر: أيامُ مِنًى الثلاثة. وهو قولُ عطاء.

وقيل: إنَّ الشفعَ والوتر: آدمُ وحوَّاء؛ لأنَّ آدم كان فرداً فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعاً بعد وترٍ. رواه ابن أبي نَجِيح، وحكاه القشيريُّ عن ابن عباس.

وفي رواية: الشفع: آدمُ وحوّاء، والوتر هو الله تعالى.

وقيل: الشفع والوتر: الخَلْقُ؛ لأنهم شفعٌ ووتر، فكأنه أَقْسَم بالخلق[3]. وقد يُقْسِمُ الله تعالى بأسمائه وصفاته لعِلْمِه، ويقسمُ بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. ويقسمُ بمفعولاته، لعجائب صُنْعِه، كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١ عن مجاهد ومسروق، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥١ عن مجاهد وأبي صالح.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٠-٣٥٤ ، والنكت والعيون ٦/ ٢٦٦ ، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧ .

وقيل: الشفعُ: دَرَجاتُ الجنة، وهي ثمان. والوترُ دَرَكاتُ النارِ؛ لأنها سبعةٌ. وهذا قولُ الحسين بن الفضل، كأنه أَقسم بالجنة والنار.

وقيل: الشَّفعُ: الصفا والمروةُ، والوترُ: الكَعْبة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: الشفع: الأيامُ والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلةَ بعده، وهو يومُ القيامةِ.

وقال سفيان بن عُيينة: الوترُ هو الله، وهو الشفع أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال أبو بكر الورَّاقُ: الشفعُ: تَضَادُّ أوصافِ المخلوقين: العِزُّ والذلُّ، والقدرةُ والعجزُ، والقوّةُ والضعفُ، والعلمُ والجهلُ، والحياةُ والموتُ، والبصرُ والعَمَى، والسَّمْعُ والصَّمَم، والكلامُ والخَرَس. والوتر: انفرادُ صفاتِ الله تعالى: عِزٌّ بلا ذلٍّ، وقدرةٌ بلا عجزٍ، وقوّةٌ بلا ضعفٍ، وعلمٌ بلا جهلٍ، وحياةٌ بلا موتٍ، وبصرٌ بلا عَمًى، وكلامٌ بلا خَرَسٍ، وسمعٌ بلا صَمَمٍ، وما وازاها.

وقال الحسن: المرادُ بالشَّفْعِ والوَتْرِ: العددُ كلُّه؛ لأنَّ العددَ لا يخلو عنهما، وهو إقسامٌ بالحساب.

وقيل: الشَّفعُ: مسجدُ مكةَ والمدينةِ، وهما الحرمان. والوتر: مسجدُ بيتِ المقدس.

وقيل: الشَّفع: القِرَانُ بين الحجِّ والعمرةِ، أو التمتُّعُ بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفرادُ فيه.

وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذَكَرٌ وأُنثَى. والوتر: الجماد.

وقيل: الشفع: ما يَنْمي، والوتر: ما لا يَنْمي. وقيل غيرُ هذا[1].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨١-٤٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٧، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧ قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٩: وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناسَ ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل، جديرٌ بالتَّلهي عنه.

وقرأ ابن مسعود وأصحابُه والكسائيُّ وحمزةُ وخلف: «والوِترِ» بكسر الواو. والباقون بفتح الواو[١]، وهما لغتان بمعنًى واحدٍ. وفي «الصحاح»[٢]: الوِتر بالكسر: الفرد، والوَتْر بفتح الواو: الذَّحْل[٣]. هذه لغةُ أهلِ العالية. فأَمَّا لغُة أهلِ الحجاز فبالضِّدِّ منهم. فأمَّا تميمٌ فبالكسرِ فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وهذا قَسَمٌ خامسٌ. وبعدَ ما أَقْسَم بالليالي العَشْرِ على الخصوص، أَقْسَم بالليل على العموم. ومعنى «يسري» أي: يُسْرَى فيه، كما يقال: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ؛ قال:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلانَ في السُّرَى ... ونِمْتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائمِ[٤]

ومنه قولُه تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]. وهذا قولُ أكثرِ أهلِ المعاني، وهو قولُ القُتَبيِّ والأخفش[٥].

وقال أكثرُ المفسِّرين: معنى «يَسْرِي»: سار فذهب[٦].

وقال قتادةُ وأبو العاليةِ: جاء وأَقْبَل[٧].

ورُوِي عن إبراهيم: «والليلِ إذا يَسْرِ» قال: إذا استوى.

وقال عكرمةُ والكلبيُّ ومجاهدٌ ومحمد بن كعب في قوله «والليلِ»: هي ليلةُ

---

(١) السبعة ص٦٨٣، والتيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) مادة (وتر).

(٣) الذحل: الحقد والعداوة. الصحاح (ذحل).

(٤) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٩٣، وسلف ١١/ ٢٠.

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٢٦، وسيأتي عن الأخفش.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥٦-٣٥٧ عن ابن الزبير وابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي العالية وابن زيد.

(٧) ذكره عن قتادة البغوي ٤/ ٤٨٢، وابن الجوزي ٩/ ١٠٨.

المزدلفةِ خاصةً؛ لاختصاصها باجتماع الناسِ فيها لطاعة الله[(١)].

وقيل: ليلة القَدْر؛ لسِرايةِ الرحمةِ فيها، واختصاصِها بزيادةِ الثوابِ فيها[(٢)].

وقيل: إنه أراد عمومَ الليلِ كلِّه.

قلت: وهو الأظهرُ كما تقدَّم. والله أعلم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ محيصنٍ ويعقوبُ: «يسري» بإثباتِ الياءِ في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومةٍ، فتَثْبتُ فيها الياء. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف[(٣)]، وروي عن الكسائيّ. قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول مرةً بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف؛ اتِّباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حَذْفِ الياءِ في الحالين جميعاً[(٤)]؛ لأنَّه رأسُ آيةٍ، وهي قراءةُ أهلِ الشَّامِ والكوفةِ، واختيارُ أبي عُبيد، اتِّباعًا للخطِّ؛ لأنَّها وقعت في المصحفِ بغيرِ ياءٍ. قال الخليل: تسقطُ الياءُ منها اتِّفاقًا لرؤوسِ الآي.

قال الفرَّاء: قد تحذفُ العربُ الياءَ وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها، وأنشد بعضُهم:

كفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهَمًا جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسَّيفِ الدَّمَا[(٥)]

يقال: فلانٌ ما يُلِيقُ درهماً من جُودِه، أي: ما يُمسِكُه، ولا يلصقُ به.

وقال المؤرِّج: سألتُ الأخفشَ عن العِلَّة في إسقاطِ الياءِ من «يَسْرِ»، فقال: لا أُجِيبُكَ حتى تَبِيتَ على بابِ داري سنةً، فبِتُّ على بابِ دارِه سنةً[(٦)]، فقال: الليلُ لا

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر أيضاً. السبعة ص٦٨٣، والتيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٤) وهذا هو المشهور عنه: حذف الياء في الحالين، وذكر قول أبي عبيد ابن مجاهد في السبعة ص٦٨٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠. وسلف البيت ١١/ ٢٠٩.

(٦) كذا في النسخ، ولعل الصواب في الموضعين: ليلة، كما في البرهان للزركشي ٣/ ١٠٧، وذكر القصة أيضاً صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٦٠ وفيه: حتى تبيت على باب داري، دون تعيين.

يَسْري وإنَّما يُسْرَى فيه، فهو مصروفٌ، وكلُّ ما صَرَفْتَه عن جِهَتِه بَخَسْتَه من إعرابه، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، ولم يَقُلْ: بغيَّةً، لأنه صَرَفَها عن باغية[١].

الزمخشريُّ: وياءُ «يسري» تُحذفُ في الدَّرْج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأمَّا في الوقف فتُحذَفُ مع الكسرة. وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ بالقَسَم، والجوابُ محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ، يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[٢].

وقال ابن الأنباريِّ: هو: «إِنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ»[٣].

وقال مقاتلٌ: «هل» هنا في موضع إنَّ؛ تقديرُهُ: إنَّ في ذلك قَسَماً لذي حِجْر. فـ«هل» على هذا في موضعِ جوابِ القَسَم[٤]. وقيل: هل[٥] على بابها من الاستفهام الذي معناه التقدير، كقولك: أَلَمْ أُنعِمْ عليك؟ إذا كنتَ قد أَنْعَمْتَ.

وقيل: المرادُ بذلك التأكيدُ لِمَا أَقْسَم به وأَقْسَم عليه. والمعنى: بل في ذلك مَقْنَعٌ لذي حِجْرٍ. والجوابُ على هذا: «إِنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصادِ». أو مُضْمَرٌ محذوفٌ.

ومعنى ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: لذي لُبٍّ وعقلٍ، قال الشاعر:

وكيف يُرجَّى أَنْ تَتوبَ وإنَّما ... يُرَجَّى من الفِتيانِ مَن كان ذا حِجْرِ[٦]

(١) ذكر قول الأخفش دون ذكر القصة البغوي ٤/ ٤٨٢ .

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٩ و٢٥٠ .

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٦ .

(٤) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ : هذا قولٌ لم يَصْدُرْ عن تأمُّل؛ لأن المقسَمَ عليه ـ على تقدير أن يكون التركيب: إن في ذلك قسماً لذي حجر ـ لم يُذْكَر، فيبقى قسم بلا مُقْسِم عليه؛ لأن الذي قدَّره لا يصح أن يكون مُقْسَماً عليه . اهـ. وذكر قول مقاتل الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٧ دون قوله: ف «هل» على هذا ...

(٥) في (م): هي.

(٦) البيت للحارث بن مُنَبِّهٍ الجنبي، كما روى ابن الأنباري عن السدي في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٥ ، وفيه: وكيف رجائي أن تثوب وإنما...

كذا قال عامَّةُ المفسِّرين[١]، إلّا أنَّ أبا مالكٍ قال: «لِذِي حِجْرٍ» لذي سِتْرٍ من الناس[٢]. وقال الحسن: لذي حِلْم[٣]. قال الفرَّاء: الكلُّ يرجعُ إلى معنًى واحدٍ: لذي حجْر، ولذي عقلٍ، ولذي حِلْمٍ، ولذي سِتْرٍ؛ الكلُّ بمعنى العقل[٤].

وأصلُ الحِجر: المنعُ. يقال لِمَن مَلَكَ نفسَه ومَنَعها: إنه لذو حِجْر، ومنه سمِّي الحَجَر؛ لامتناعه بصلابته، ومنه: حَجر الحاكمُ على فلان، أي: مَنَعه وضَبَطَه عن التصرُّف؛ ولذلك سمِّيتِ الحُجْرةُ حجرةً؛ لامتناعِ ما فيها بها. وقال الفرَّاء[٥]: العربُ تقول: إنه لذو حِجْر: إذا كان قاهراً لنفسِه، ضابطاً لها كأنه أُخِذَ من: حَجَرتُ على الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: مالِكُكَ وخالِقُكَ. ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ قراءةُ العامَّةِ: «بعادٍ» منوَّناً. وقرأ الحسن وأبو العالية: «بِعادِ إرَمَ» مضافاً[٦]. فَمَن لم يُضِفْ جعل «إرَمَ» اسمَه، ولم يَصْرِفْه؛ لأنه جعل عادًا اسمَ أبيهم، وإرمَ اسمَ القَبيلة، وجعله بدلاً منه أو عَطْفَ بيانٍ. ومَن قَرَأه بالإضافة ولم يَصْرِفه جعله اسمَ أمِّهم[٧]، أو اسمَ بلدتهم.

وتقديرُه[٨]: بعادِ أهلِ إرمَ، كقوله: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. ولم تنصرفْ ـ

---

(١) تنظر أقوالهم في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٨-٣٦٠ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠ بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ عن الحسن، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٥٠ عن ابن الزبير رضي الله عنهما.

(٧) في (ظ): أبيهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (أرم) والكلام منه.

(٨) يعني على قراءة العامة وليس على قراءة الإضافة، وذلك على القول بأن «إرم» هو اسم البلدة أو المدينة. ينظر الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٦٧ ، والدر المصون ١٠/ ٧٨٢ ، واللباب ٢٠/ ٣١٥ .

قبيلةً كانت أو أرضًا ـ للتعريفِ والتأنيث[١].

وقراءةُ العامةِ: «إِرَمَ» بكَسْرِ الهمزة. وعن الحسن أيضاً: «بعادَ إِرَمَ» مفتوحتين[٢].

وقرِئ: «بعادٍ أَرْمَ» بسكونِ الراء، على التخفيف، كما قرئ: «بوَرْقِكم»[٣].

وقرئ: «بِعادِ إرَمِ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إرَم» إلى «ذاتِ العِمادِ». والإرَمُ: العَلَم. أي: بعادِ أهلِ أعلامِ ذاتِ العماد[٤].

وقرئ: «بِعادٍ أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ» أي: جعل الله ذاتَ العمادِ رميمًا[٥].

وقرأ مجاهدٌ والضحاكُ وقتادةُ: «أَرم» بفتح الهمزة[٦]. قال مجاهد: مَن قرأ بفتح الهمزة شبَّههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدُها: أَرِم[٧].

وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: والفجرِ وكذا وكذا إنَّ ربَّك لبالمِرصاد «أَلَمْ تَرَ» أي: أَلَم يَنْتهِ عِلْمُكَ إلى ما فعل ربُّك بعاد. وهذه الرؤيةُ رؤيةُ القلب، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ. وكان أمرُ عادٍ وثمودَ عندهم مشهوراً؛ إذ كانوا في بلادِ

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ ، والكشاف ٤/ ٢٥٠ ، و«عادَ» على هذه القراءة غير مصروفة كما ذكر ابن خالويه وابن عطية.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وهي بفتح الهمزة من «أرم»، كذا ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩ ، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ عن الضحاك. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣ : هي تخفيف «أرِم» بكسر الراء، وهي لغة في اسم المدينة . اهـ . و«عاد» على هذه القراءة رويت مصروفة وغير مصروفة، كما ذكر أبو حيان.

(٤) في النسخ: أي بعاد أهل ذات العلم، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٥٠ والكلام منه. وهي أعلام كان قوم عاد يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور، كما ذكر الرازي ٣١/ ١٦٧ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . وهي بدل من: «فَعَل ربك» كما ذكر الزمخشري، أو دعاء عليهم، كما ذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣ . والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩ وستأتي.

(٦) القراءة بفتح الهمزة ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ عن الضحاك وقيدها بفتح الراء، وعن ابن الزبير وقيدها بكسر الراء، وقرئت أيضاً: «أَرْم» بسكون الراء كما سلف .

(٧) مثل كَتِف، وكذلك إرَم، مثل: عِنب. القاموس (أرم).

العرب، وحِجْرُ ثمودَ موجودٌ اليوم. وأمرُ فرعونَ كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضتْ به الأخبار، وبلادُ فرعونَ متَّصلةٌ بأرضِ العرب. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة البروج[1] وغيرها.

﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقومِ عاد. فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: إنْ كان الرجلُ من قومِ عادٍ لَيتَّخذُ المِصْراعَ من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسُ مئةٍ من هذه الأمةِ لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه، وإنْ كان أحدُهم ليُدخِلُ قدمَه في الأرض فتدخلُ فيها[2].

و«إِرَم»، قيل: هو سام بنُ نوح؛ قاله ابنُ إسحاق[3]. وروى عطاء عن ابن عباس ـ وحكي عن ابن إسحاق أيضاً ـ قال: عاد بن إرَم. فإرَمُ على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم ابن عوص بن سام بن نوح[4]. وعلى القول الأوّل: هو اسمُ جدِّ عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بنُ نوح له أولاد، منهم إرم بنُ سام، وأَرْفَخْشَذ بن سام. فَمِن ولد إرم بنِ سام العمالقةُ والفراعنةُ والجبابرةُ والملوكُ الطغاةُ والعصاة.

وقال مجاهد: «إرَم» أمّةٌ من الأمم. وعنه أيضاً: أنَّ معنى إرَمَ: القديمة، ورواه ابن أبي نَجِيح[5]. وعن مجاهدٍ أيضاً أنَّ معناها: القوية.

وقال قتادة: هي قبيلةٌ من عاد[6]. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرَم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]. فقيل لعقِب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لنبي هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى

---

(١) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٨ (١٥٨٣٧).

(٣) الذي قال إن إرم هو سام بن نوح، الكلبي كما في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠١، وقول ابن إسحاق الذي ذكره ابن هشام في السيرة ١/ ٧: أن إرم هو ابن سام بن نوح. وسيأتي.

(٤) ذكر هذه الرواية عن ابن إسحاق الطبري ٢٤/ ٣٦٣، والماوردي ٦/ ٢٦٨.

(٥) أخرج القولين عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٣٦٢.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٢-٣٦٣.

ـ وإِرَم: تسميةٌ لهم باسم جَدِّهم ـ ولمَن بعدهم: عادٌ الأخيرة[١]. قال ابن الرُّقَيّات:

مَجْدًا تليداً بناهُ أوَّلُهم أَدْرَكَ عاداً وقبلَهُ إرَمَا[٢]

وقال مَعْمر: «إرم»: إليه مجمعُ عاد وثمود، وكان يقال: عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ[٣]. وكانت القبائلُ تنتسب[٤] إلى إرم.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ، ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجلُ منهم طولُه خمسُ مئةِ ذراع، والقصيرُ منهم طولُه ثلاثُ مئةِ ذراعٍ بذراع نفسه. ورُوي عن ابن عباس أيضاً أنَّ طولَ الرجلِ منهم كان سبعين ذراعاً. ابن العربيّ[٥]: وهو باطلٌ؛ لأنَّ في الصحيح: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ طولُه ستُّونَ ذراعاً في الهواء، فلم يَزَل الخَلْقُ يَنقُصُ إلى الآن»[٦]. وزعم قتادة: أنَّ طولَ الرجلِ منهم اثنا عَشَرَ ذراعاً[٧].

قال أبو عبيدة[٨]: «ذاتِ العِمادِ»: ذات الطُّول. يقال: رجلٌ مُعَمَّدٌ: إذا كان طويلاً. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد[٩].

وعن قتادة أيضاً: كانوا عِمادًا لقومهم؛ يقال: فلانٌ عميدُ القومِ وعَمودُهم، أي: سيدُهم وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك؛ لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٧ ، وذكر هذا القول مختصراً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧ ، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٢٢ .

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥ .

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٤٨٢ عن الكلبي، وفيه: عاد إرم وثمود إرم، وهو أشبه.

(٤) في (د) و(ظ): تنسب.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨ .

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٧ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧ .

(٩) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٦٥ .

أهلَ خيامٍ وأعمدة، ينتجعون الغيوثَ، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم[١].

وقيل: «ذاتِ العِمادِ» أي: ذاتِ الأبنيةِ المرفوعةِ على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدةَ، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: «ذاتِ العِمادِ»: يعني إحكامَ البُنيانِ بالعَمَد[٢]. وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنيةُ الرفيعةُ، تُذكَّر وتؤنَّث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عِمادُ الحيِّ خَرَّتْ على الأَحْفاضِ نَمْنعُ مَن يَلينا

والواحدةُ عِمادة. وفلانٌ طويلُ العِماد: إذا كان منزلُه مَعْلَماً لزائرِه[٣]. والأحفاض: جمعُ حَفَضٍ بالتحريك، وهو متاعُ البيتِ إذا هُيِّء ليُحْمَلَ، أي: خَرَّتْ على المتاع. ويروى: عن الأحفاض، أي: خرَّت عن الإبل التي تحملُ خُرْثيَّ البيت[٤].

وقال الضحاك: «ذاتِ العِمادِ» ذات القوَّةِ والشدَّة، مأخوذٌ من قوَّةِ الأعمدة[٥]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وروى عوفٌ عن خالد الرَّبعيِّ: «إرم ذاتِ العِمادِ» قال: هي دمشق. وهو قولُ عكرمةَ وسعيدٍ المَقْبُرِيِّ. ورواه ابنُ وهبٍ وأشهبُ عن مالك[٦]. وقال محمد بن كعب القُرظيُّ: هي الإسكندرية[٧].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٥-٣٦٦ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ ، وزاد المسير ٩/ ١١٢ .

(٣) الصحاح (عمد)، وبيت عمرو بن كلثوم في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١ .

(٤) الصحاح (حفض). والخُرْثي: أثاث البيت، أو أردأ المتاع والغنائم. القاموس (خرث).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٦ ، دون قوله: مأخوذ...

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٢ عن المقبري ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠-٢٢١ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ عن مالك، وأخرجه عن عكرمة وخالد الربعي عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٧ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦١ . قال النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢١ : فأما أن يكون إرم الإسكندرية =

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾

الضمير في «مِثْلِها» يرجعُ إلى القبيلة. أي: لم يُخْلَقْ مثلُ القبيلةِ في البلاد: قوةً وشدةً، وعِظَمَ أجسادٍ، وطولَ قامةٍ؛ عن الحسن[1] وغيرِه. وفي حرف عبدِ الله: «التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهُم في البلاد»[2]. وقيل: يرجع للمدينة. والأوّلُ أَظْهَرُ، وعليه الأكثرُ، حَسْبَ ما ذكرنا.

ومَن جعل «إرم» مدينةً قدَّر حَذْفًا، المعنى: كيف فَعَلَ ربُّك بمدينةِ عادٍ إرم، أو بعادٍ صاحبةِ إرم. وإرمُ على هذا: مؤنَّثةٌ معرفة [فلذلك لم تنصرف][3].

واختار ابن العربيِّ أنها دِمشق؛ لأنه ليس في البلاد مثلُها. ثم أخذ يَنْعتُها بكَثْرةِ مياهِها وخيراتها. ثم قال: وإنَّ في الإسكندرية لعجائبُ، لو لم يَكُنْ إلَّا المنارةُ، فإنَّها مَبْنيةُ الظاهرِ والباطنِ على العَمَد، ولكنْ لها أمثالٌ، فأمَّا دِمشقُ فلا مِثلَ لها. وقد روى مَعْنٌ عن مالكٍ: أنَّ كتاباً وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو؟ فإذا فيه: أنا شدّاد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتُها حين لا شَيْبَ ولا مَوْت. قال مالك: إنْ كان لتمرُّ بهم مئةُ سنةٍ لا يَرَوْنَ فيها جنازةً[4].

وذُكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شدَّاد بن عاد، وأنا الذي رفعتُ العماد، وأنا الذي شَدَدْتُ بذراعي بطنَ الوادي، وأنا الذي كنزتُ كنزاً على سبعةِ أَذْرُعٍ، لا يُخْرِجه إلَّا أمّةُ محمدٍ ﷺ[5].

ورُوِي أنه كان لعاد ابنان: شدَّاد وشديد، فَملَكا وقَهَرا، ثم مات شديدٌ وخلصَ

= أو دمشق فبعيد؛ لقول الله تعالى: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ والحقف ما التوى من الرمل، وليس كذا دمشق ولا الإسكندرية. وردَّ هذا القول أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ .

(٢) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨١٧ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفتح الباري ٨/ ٧٠٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ ، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٠ .

الأمرُ لشدَّاد، فملك الدنيا ودانَتْ له ملوكُها؛ فسمع بذِكْرِ الجنة، فقال: أبني مِثْلَها. فبنَى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن في ثلاثِ مئةِ سنةٍ، وكان عمرُه تسعَ مئةِ سنةٍ. وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجد والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجار والأنهارِ المُطَّرِدة. ولمَّا تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمَّا كان منها على مسيرةِ يومٍ وليلة، بعث الله عليهم صحيةً من السماء فهلكوا(١).

وعن عبد الله بن قِلابة: أنه خرج في طلب إبلٍ له، فوقع عليها، فحمل ما قدرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره، فقصَّ عليه، فبعث إلى كعبٍ فسأله، فقال هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك، أحمرُ أشقرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عَقِبه خال، يخرج في طلب إبلٍ له، ثم التَفتَ فأبْصرَ ابنَ قِلابة، وقال: هذا واللهِ ذلك الرجل(٢).

وقيل: أي: لم يُخْلق مثلُ أبنيةِ عاد المعروفةِ بالعَمَد. فالكنايةُ للعماد. والعمادُ على هذا: جمع عَمَد(٣).

وقيل: الإرَم: الهلاكُ؛ يقال: أَرِمَ بنو فلان، أي: هلكوا. وقاله ابن عباس(٤). وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ»(٥)، أي: أَهْلَكَهم، فجعلهم رَمِيماً.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . والأساطين: جمع أسطوانة، وهي السارية. القاموس (سطن).

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وأخرجه مطولاً جدًّا أبو الشيخ في العظمة (٩٩٥) ، وفيه: وعلى عنقه خال، بدل: وعلى عقبه خال. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤ : آثار الوضع عليه لائحة. . وقال ابن كثير: هذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يُقطع بعدم صحته.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٨ . وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٦٨ هذا القول عن ابن زيد. قال ابن كثير: قول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٣ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٩-٣٦٠ عن ابن عباس والضحاك. وقد سلفت.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

ثمود: هم قومُ صالحٍ. و«جابوا»: قَطَعوا. ومنه: فلانٌ يجوب البلادَ، أي: يقطعُها. وإنَّما سمِّي جيبُ القميصِ لأنه جِيبَ، أي: قطع. قال الشاعرُ وكان قد نَزَلَ على ابنِ الزبيرِ بمكةَ، فكتب له بستِّين وسْقًا يأخذُها بالكوفة، فقال:

راحَتْ رَوَاحًا قَلُوصِي وهي حامدةٌ ... آلَ الزُّبَيرِ ولم تَعْدِلْ بهم أَحدَا
راحتْ بستِّينَ وَسْقًا في حَقِيبتها ... ما حمِّلتْ حِمْلَها الأدنَى ولا السَّددا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصًا قَبْلَها حَمَلتْ ... سِتِّين وَسْقًا ولا جابَتْ به بلدا[1]

أي: قَطَعتْ. قال المفسِّرون: أوّلُ مَن نَحَتَ الجبالَ والصخورَ والرخامَ: ثمود. فبنَوْا من المدائن ألفاً وسبعَ مئةِ مدينةٍ كلُّها من الحجارة. ومن الدُّورِ والمنازلِ ألفَيْ ألفٍ وسبعَ مئةِ ألف، كلُّها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. وكانوا لقوَّتهم يُخرجون الصخورَ، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم.

﴿بِالوادي﴾[2] أي: بوادي القُرَى؛ قاله محمد بنُ إسحاق[3]. وروى أبو الأشهب عن أبي نَضْرةَ قال: أَتَى رسولُ الله ﷺ في غَزاةِ تَبوك على وادي ثمود، وهو على فَرَسٍ أَشْقرَ، فقال: «أَسْرِعوا السيرَ، فإنَّكم في وادٍ ملعون»[4].

---

(١) الأبيات لأبي وجزة السعدي، والخبر مع الأبيات في الكامل للمبرد ١/ ٢٤٣ ، والأغاني ١٢/ ٢٤٤ ، ووقع فيهما في أول الخبر: آل الزبير، بدل: ابن الزبير.

(٢) بإثبات الياء وصلاً: ورش، وفي الحالين: البزي ويعقوب، وأما قنبل فأثبتها وصلاً، واختلف عنه وقفاً، فروي عنه إثباتها وروي عنه حذفها، وحَذفها الباقون في الحالين. ينظر السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢-٢٢٣ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، ووادي القرى: واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر، من أعمال المدينة كثير القرى. معجم البلدان ٤/ ٣٣٨ و٥/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، وأخرجه البغوي في الجعديات (٣١٧٧)، والذهبي في السير ٧/ ٢٨١ وقال: هذا مرسل جيد. وأبو الأشهب هو جعفر بن حيان العطاري البصري، وأبو نضرة هو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبدي البصري، توفي سنة (١٠٨هـ). التهذيب ٤/ ١٥٤ .

وقيل: الوادي بين جبالٍ، وكانوا ينقُبون في تلك الجبال بيوتاً ودُوراً وأحواضاً. وكلُّ مُنْفَرَجٍ بين جبالٍ أو تلالٍ يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

أي: الجنودِ والعساكرِ والجموعِ والجيوشِ التي تشدُّ مُلْكَه؛ قاله ابن عباس[١].

وقيل: كان يعذِّب الناس بالأوتاد، ويشدُّهم بها إلى أن يموتوا، تجبُّراً منه وعُتُوًّا. وهكذا فعل بامرأته آسيةَ وماشطةِ ابنته، حَسْبَ ما تقدَّم في آخر سورة التحريم[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرةٌ تُرفع بالبكرات، ثم يؤخذُ الإنسان فتُوتَدُ له أوتادُ الحديد، ثم يرسلُ تلك الصخرة عليه فتشدخُه. وقد مضى في سورة «ص»[٣] مِن ذِكْرِ أوتادِه ما فيه كفايةٌ. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ يعني عادًا وثمودًا[٤] وفرعونَ، «طَغَوْا» أي: تمرَّدوا وعَتَوْا وتَجاوَزوا القَدْرَ في الظُّلْم والعُدوان. ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: الجَوْرَ والأذى.

و«الذين طَغَوْا» أَحْسنُ الوجوهِ فيه أن يكون في محلِّ النَّصْبِ على الذَّمِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعاً على: هم الذين طَغَوْا، أو مجروراً على وصفِ المذكورِينَ: عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧١.

(٢) ٢١/ ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) عند تفسير الآية (١٢).

(٤) مَن صَرَفه ذهب به إلى الحي؛ لأنه اسم عربي مذكَّر سمي بمذكَّر، ومَن لم يَصْرِفه ذهب به إلى القبيلة، وهي مؤنثة. اللسان (ثمد).

(٥) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٩.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: أَفْرغَ عليهم وأَلْقى؛ يقال: صبَّ على فلان خِلْعةً، أي: ألقاها عليه وقال النابغة:

فَصبَّ عليه اللهُ أَحْسَنَ صُنْعِه وكان له بينَ البَرِيَّة ناصِرا[١]

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: نَصِيبَ عذابٍ. ويقال: شِدَّته؛ لأنَّ السوطَ كان عندهم نهايةَ ما يُعَذَّب به، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أظهرَ دِينَه وصبَّ على الكفَّار سَوْطَ عَذابِ[٢]

وقال الفرَّاء[٣]: هي كلمةٌ تقولُها العربُ لكلِّ نوعٍ من أنواع العذاب. وأصلُ ذلك: أنَّ السَّوْطَ هو عذابُهم الذي يُعذِّبون به، فجرى لكلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندهم غايةُ العذاب.

وقيل: معناه: عذاب يخالطُ اللَّحمَ والدَّمَ، مِن قولهم: ساطَه يَسُوطُه سَوْطاً، أي: خَلَطَه، فهو سائطٌ. فالسَّوْطُ: خَلْطُ الشيءِ بعضِه ببعضٍ؛ ومنه سمِّي المِسْواط[٤]. وسَوَّطَهُ، أي: خَلَطه[٥] وأَكْثَرَ ذلك؛ يقال: سَوَّط فلانٌ أمورَه، قال:

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأيِ غيرَ مُوَفَّقٍ فلَسْتَ على تَسْوِيطِها بمُعَانِ[٦]

قال أبو زيد: يقال: أموالُهم سَوِيطةٌ بينهم؛ أي: مختلطةٌ. حكاه عنه يعقوب[٧]. وقال الزجَّاج: أي: جَعَلَ سَوْطَهم[٨] الذي ضَرَبهم به العذابَ. يقال: ساط دابَّته

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٦٥ برواية: ورَبَّ عليه الله...

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ١/ ١٨٧ عن أوس بن بجير الطائي برواية:

ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصب على الكفار سوط عذاب

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١ .

(٤) المِسْوَط والمِسْواط: ما يخلط به من عصاً ونحوِها. القاموس (سوط).

(٥) بعدها في (د) و(م): فهو سائط، والمثبت من باقي النسخ والصحاح (سوط)، والكلام منه.

(٦) العين ٧/ ٢٧٨ ، والصحاح (سوط) والكلام منه، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٤ ، وأساس البلاغة (سوط).

(٧) الصحاح (سوط)، ويعقوب هو ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص٣٩٠ .

(٨) في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٢ : سوطه.

يَسُوطُها، أي: ضربها بسَوْطه.

وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآيةِ قال: إنَّ عندَ الله أسواطاً كثيرةً، فأخَذَهم بسوطٍ منها[١]. وقال قتادةُ: كلُّ شيءٍ عذَّب الله تعالى به فهو سوطُ عذابٍ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾

أي: يَرْصُدُ عملَ كلِّ إنسانٍ حتى يُجازِيَه به؛ قاله الحسن وعكرمةُ[٣]. وقيل: أي: عليه طريقُ العبادِ لا يفوتُه أحد[٤]. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة براءة[٥]، والحمد لله.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: إنَّ على جهنَّمَ سبعَ قَناطِرَ، يُسأل الإنسان عند أوَّلِ قنطرةٍ عن الإيمان، فإن جاء به تامًّا جازَ إلى القنطرةِ الثانية، ثم يُسألُ عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهرِ رمضانَ، فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسأل عن الحجِّ والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة، ثم يسأل عن صلةِ الرَّحِم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادِي منادٍ: ألَا مَن كانت له مَظْلِمةٌ فلْيأْتِ؛ فيُقتصُّ للناس منه، ويُقتصُّ له من الناس؛ فذلك قولُ عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٦].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٨ .

(٣) ذكره عنهما بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ٣٧١ ، والطبري ٢٤/ ٣٧٦ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، والبغوي ٤/ ٤٨٤ عن الكلبي. قال الواحدي: والمعنى لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت مَن بالمرصاد، وهذا معنى قول الحسن وعكرمة.

(٥) ١٠/ ١١١ .

(٦) ذكره بنحوه السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٢١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣. وأخرجه بنحوه أيضاً البيهقي من الأسماء والصفات (٩١٥) عن مقاتل بن سليمان قوله .

وقال الثوريُّ: «لبِالمِرصادِ» يعني جهنَّمَ؛ عليها ثلاثُ قناطرَ: قنطرةٌ فيها الرَّحِمُ، وقنطرةٌ فيها الأمانةُ، وقنطرةٌ فيها الربُّ تبارك وتعالى[١].

قلت: أي: حُكْمُه[٢] وإرادتُه وأمرُه. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: «لبِالمِرصادِ»، أي: يَسْمعُ ويَرَى[٣].

قلت: هذا قولٌ حسن، يَسْمعُ أقوالَهم ونجواهم، ويَرَى، أي: يعلمُ أعمالَهم وأسرارَهم، فيجازِي كلًّا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربُّك؟ فقال: بالمرصاد.

وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورةَ عند المنصور حتى بلغ هذه الآيَةَ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يا أبا جعفر[٤]! قال الزمخشريُّ[٥]: عَرَّض له في هذا النداء، بأنه بعضُ من تُوُعِّد بذلك من الجبابرة، فِللهِ دَرُّه، أيُّ أَسَدِ فِراصٍ[٦] كان بين يديه[٧]؟ يَدُقُّ الظَّلمةَ بإنكاره، ويَقْصَعُ[٨] أهلَ الأهواءِ والبدعِ باحتجاجه!

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس: يريد عُتبةَ بنَ ربيعةَ وأبا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) في (ظ) و(م): حكمته.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥ .

(٤) أخرجه مطولاً الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٧-١٦٨ .

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٦) في (م) والكشاف: فراس. المثبت من النسخ الخطية. والفِرَاص: الشديد. والفَرَّاس: الأسد. القاموس (فرس) و(فرص).

(٧) في (ي): ثدييه، وفي الكشاف: ثوبيه.

(٨) في (ظ): ويقنع، وفي (د) و(م): ويقمع، والمثبت من (ي) والكشاف، ومعنى قصع: صغَّر وحقَّر. القاموس (قصع).

حذيفةَ بنَ المغيرة. وقيل: أُمية بن خلف. وقيل: أبيّ بن خلف[١].

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: امْتَحَنه واخْتَبَره بالنعمة. و«ما»: زائدةٌ صِلَةٌ. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بِالمال ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما أَوْسَع عليه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فيفرحُ بذلك ولا يحمَدُه.

و﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: امْتَحَنه بالفقر واخْتَبَره. ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيَّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ على مقدارِ البُلْغة. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: أَوْلاني هَواناً. وهذه صفةُ الكافِر الذي لا يؤمنُ بالبعث، إنما الكرامةُ عنده والهوانُ بكثرةِ الحظِّ في الدنيا وقِلَّتِه. فأمَّا المؤمنُ فالكرامةُ عنده أنْ يُكْرِمَه الله بطاعته وتوفيقِه المؤدِّي إلى حظِّ الآخرة[٢]، وإنْ وسَّع عليه في الدنيا حَمِدَه وشَكَره.

قلت: الآيتان صفةُ كلِّ كافرٍ. وكثيرٌ من المسلمين يظنُّ أنَّ ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربَّما يقولُ بجهله: ولو لم أَسْتَحقَّ هذا لم يُعْطِنِيه الله. وكذا إنْ قَتَّر عليه يظنُّ أنَّ ذلك لهوانه على الله.

وقراءةُ العامَّةِ: «فَقَدر» مخفَّفةَ الدال. وقرأ ابنُ عامرٍ مشدَّداً[٣]، وهما لغتان. والاختيارُ التخفيفُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]. قال أبو عمرو: و«قَدَر» أي: قَتَر. و«قدَّر» مشدَّدا: هو أنْ يعطيه ما يَكْفِيه. ولو فعل به ذلك ما قال: «ربِّي أهانَن».

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «ربِّيَ» بفتح الياء في الموضعين. وأَسْكَن الباقون[٤].

وأَثْبَتَ البَزِّيُّ وابنُ مُحَيْصِنٍ ويعقوبُ الياءَ من «أكرمنِ»، و«أهاننِ» في الحالين[٥]؛

---

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١١٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣.

(٣) ذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٨٢ وقال: ولم يذكر ابن مجاهد هذا الحرف في كتابه. ولم ترد هذه القراءة في مطبوع التيسير. وهي في النشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن عامر وأبي جعفر.

(٤) وهم الكوفيون وابن عامر. التيسير ص٢٢٢.

(٥) السبعة ص٦٨٤، والتيسر ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

لأنها اسمٌ فلا تُحذَف. وأثبتها المدنيُّون في الوصل دون الوقف، اتِّباعاً للمصحف[١]. وخَيَّر أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حَذْفِها؛ لأنَّها رأسُ آيةٍ، وحَذَفها في الوقف لخطِّ المصحف. الباقون بحَذْفِها لأنَّها وقعت في الموضعين بغير ياءٍ، والسُّنةُ ألَّا يُخالَفَ خطُّ المصحف؛ لأنه إجماعُ الصحابة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ، أي: ليس الأمرُ كما يُظَنُّ، فليس الغِنَى لفَضْلِه، ولا الفقرُ لهوانه، وإنَّما الفقرُ والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفرَّاء[٢]: «كَلَّا» في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكنْ يحمدُ الله عزَّ وجلَّ على الغنى والفقر. وفي الحديث: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: كلَّا إنِّي لا أُكْرِم مَن أَكْرمتُ بكَثْرةِ الدنيا، ولا أُهينُ مَن أَهَنْتُ بقلَّتها، إنَّما أُكْرِمُ مَن أَكْرمتُ بطاعتي، وأُهينُ مَن أَهَنْتُ بمعصيتي»[٣].

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ إخبارٌ عن ما كانوا يصنعونه من مَنْعِ اليتيمِ الميراثَ، وأَكْلِ مالِه إسْرافاً وبِدَارًا أَنْ يَكْبَروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوبُ: «يُكْرِمون»، و«يَحُضُّون» و«يأكلون»، و«يُحِبُّونَ» بالياء[٤]؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُ الإنسانِ، والمرادُ به الجنسُ، فعبَّر عنه بلفظِ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة، كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

وتركُ إكرامِ اليتيم بدَفْعِه عن حقِّه وأَكْلِ ماله، كما ذَكَرْنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامةَ بنِ مظعون، وكان يتيماً في حِجْرِ أُمية بنِ خَلَف[٥].

---

(١) أثبتها في الوصل من العشرة نافع وأبو جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٧ عن قتادة قوله.

(٤) السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٤٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٥ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٧٢ .

﴿ولا يَحُضُّونَ[١] على طعامِ المسكينِ﴾ أي: لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكينٍ يَجيئُهم. وقرأ الكوفيون: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح التاءِ والحاءِ والألف[٢]، أي: يَحُضُّ بعضُهم بعضًا، وأصلُه تتحاضُّون، فحذف إحدى التاءينِ لدلالةِ الكلامِ عليها. وهو اختيارُ أبي عُبيد.

ورُوِي عن إبراهيمَ، والشَّيْزَرِيِّ عن الكسائي، والسُّلَمِيِّ: «تُحَاضُّون» بضمِّ التاء[٣]، وهو تُفاعِلون من الحضِّ، وهو الحثُّ.

﴿ويأكُلُون التُّراثَ﴾ أي: ميراثَ اليتامَى. وأصلُه: الوُرَاث من وَرِثْتُ، فأَبْدَلوا الواوَ تاءً، كما قالوا في تُجاه وتُخَمة وتُكَأَة وتُؤَدة ونحوِ ذلك[٤]. وقد تقدَّم[٥].

﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: شديداً؛ قاله السُّدِّيّ[٦]. وقيل «لَمًّا»: جمعاً، من قولهم: لَمَمْتُ الطعامَ لَمًّا: إذا أكلته جمعًا؛ قاله الحسنُ وأبو عُبيدة[٧]. وأصلُ اللَّمِّ في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا: جمعته، ومنه يقال: لَمَّ الله شَعَثَه، أي: جَمع ما تفرَّقَ من أموره، قال النابغة:

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... علَى شَعَثٍ أيُّ الرجَالِ المُهَذَّبُ[٨]

ومنه قولُهم: إنَّ دارك لَمُومَةٌ، أي: تَلُمُّ الناسَ وتَرُبُّهم وتَجمعُهم. وقال المِرناقُ

---

(١) في (م): تحضون، وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر من السبعة.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم من السبعة. السبعة ص٦٨٥، والتيسير ص٢٢٢.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠، والبحر ٨/ ٤٧١. والشيزري هو عيسى بن سليمان.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣.

(٥) ينظر ٥/ ٨٨، وكذلك تفسر الآية (٣١) من سورة الكهف.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٨٠ عن ابن عباس وقتادة والضحاك.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ عن الحسن، وقول أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٨.

(٨) ديوان النابغة ص١٨، والخزانة ٩/ ٤٦٧، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٨٨. قال البغدادي: يقول: أي الرجال يكون مبرَّأً من العيوب؟ فإن قَطَعْتَ إخوانك بذنب لم يبق لك أخ. وقوله: أي الرجال المهذب، قال العسكري: يضرب مثلاً للرجل يُعرف بالإصابة في الأمور، وتكون منه السَّقْطة.

الطائيُّ يمدحُ علقمةَ بنَ سيف:

لأحبَّني حُبَّ الصبيِّ ولمَّني لَمَّ الهَدِيِّ إلى الكريمِ الماجِدِ[(١)]

وقال الليث: اللمُّ: الجمعُ الشديد، ومنه: حَجَرٌ مَلْمومٌ، وكتيبةٌ مَلْمومةٌ. والآكِلُ يَلُمُّ الثَّريدَ، فيجمعهُ لُقَماً ثم يأكلُه[(٢)].

وقال مجاهد: يَسفُّه سَفًّا. وقال الحسن: يأكلُ نصيبَه ونصيبَ غيرِه[(٣)]؛ قال الحُطيئةُ:

إذا كانَ لَمًّا يُتْبِعُ الذمَّ ربَّه فلا قدَّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعني أنَّهم يجمعون في أكْلِهم بين نَصِيبِهم [من الميراث] ونصيبِ غيرِهم[(٤)].

وقال ابن زيد: هو أنَّه إذا أكل مالَه أَلَمَّ بمالِ غيرهِ فأكَلَه، ولا يفكِّر فيما أكَلَ من خبيثٍ وطيِّبٍ[(٥)]. قال: وكان أهلُ الشِّركِ لا يورِّثون النساءَ ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثَهم مع مِيراثِهم، وتُراثَهم مع تُراثِهم[(٦)].

وقيل: يأكلون ما جَمَعه الميتُ من الظَّلَمةِ[(٧)] وهو عالمٌ بذلك، فَيلُمُّ في الأكل بين

(١) الصحاح (لمم) والكلام منه، والحيوان ٣/ ٤٦٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٤٤٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩١، وللتبريزي ٤/ ٧٠. ووقع في المصادر عدا الصحاح: ورمَّني رمَّ الهديِّ، قال التبريزي: رمَّني: أصلح حالي. رمَّ الهديِّ، الهديُّ: العروس. وقال المرزوقي: أي: أحبني كما يُحَبُّ الصبي، وأصلح من أموري ما يُصْلَح من شأن العروس إذا زفت إلى الموسر الغني. والمرناق هو فدكي بن أعبد كما ذكر الجوهري، وكان قد سرقت إبل له، فردها عليه علقمة بن سيف. وعلقمة بن سيف من تغلب، وكان شريفاً رئيساً في الجاهلية، ذكره عمرو بن كلثوم في معلقته، ويقال: إنه هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة. الاشتقاق ص٣٣٧، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٧٦، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧١-٧٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٣٨٠.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة.

(٥) في (م): ولا يفكر أكل من خبيث أو طيب.

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٨١.

(٧) في (م) الظلم، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٥٣، والكلام منه.

حَرامِه وحَلَاله.

ويجوزُ أنْ يذمَّ الوارثَ الذي ظَفِر بالمال سَهْلاً مَهْلاً، مِن غيرِ أنْ يَعرَقَ فيه جبينُه، فَيُسْرِفُ في إنفاقه، ويأكلُه أكلاً واسعاً، جامعاً بين المُشتَهَيات[١] من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوُرَّاثُ البَطَّالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، حلالَه وحرامَه. والجمُّ: الكثير. يقال: جَمَّ الشيءُ يُجُمُّ جُموماً، فهو جَمٌّ وجامٌّ. ومنه جَمَّ الماءُ في الحوض: إذا اجتمع وكثُر؛ وقال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمّا ... وأيُّ عبْدٍ لكَ لا أَلَمّا[٢]

والجَمَّةُ: المكانُ الذي يجتمعُ فيه ماؤه. والجَمومُ: البئرُ الكثيرةُ الماءِ. والجُمومُ بالضمِّ المصدرُ؛ يقال: جَمَّ الماءُ يجم[٣] جموماً: إذا كثُر في البئر واجتمع، بعد ما استُقي ما فيها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمر. فهو ردٌّ لانْكِبابِهم على الدنيا، وجَمْعِهم لها؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك يندمُ يومَ تُدَكُّ الأرضُ، ولا ينفعُه النَّدمُ. والدَّكُّ: الكَسْرُ والدقُّ، وقد تقدَّم[٤]. أي: زُلْزِلتِ الأرضُ، وحُرِّكتْ تحريكاً بعدَ تحريكٍ.

وقال الزجَّاج[٥]: أي: زُلزلتْ فَدَكَّ بعضُها بعضاً. وقال المبرِّد: أي: أُلِصقَتْ وذَهبَ ارتفاعُها؛ يقال ناقةٌ: دَكَّاءُ، أي: لا سنامَ لها، والجمعُ دُكٌّ. وقد مضى في

---

(١) في النسخ الخطية: المشتبهات، والمثبت من (م) والكشاف.

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت أو لأبي خراش، وقد سلف عند تفسر الآية (٣٢) من سورة النجم.

(٣) بالكسر والضم في الجيم. مختار الصحاح (جمم)، والكلام من الصحاح (جمم).

(٤) ينظر ٩/ ٣٢٥، وتفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف، والآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٣٢٣.

سورة الأعرافِ والحاقَّةِ القولُ في هذا[١]. ويقولون: دُكَّ الشيءُ، أي: هُدِمَ. قال:

هـل غـيـرُ غـارٍ دَكَّ غـاراً فـانْـهـدَمْ[٢]

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرةً بعد مرةٍ، زُلْزِلتْ فكسَّر بعضُها بعضًا، فتكسَّر كلُّ شيءٍ على ظَهْرِها. وقيل: دُكَّتْ جبالُها وأَنْشازُها[٣] حتى اسْتَوَتْ. وقيل: «دُكَّتْ» أي: استَوَتْ في الانْفِراش، فذهب دُورُها وقُصورُها وجبالُها وسائرُ أبنيتها. ومنه سمِّي الدُّكَّان[٤]؛ لاستوائه في الانفراش. والدكُّ: حَطُّ المرتفعِ من الأرض بالبَسْطِ؛ وهو معنى قولِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباس: تُمدُّ الأرضُ مَدَّ الأديم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي أمرُه وقضاؤُه؛ قاله الحسن[٦]. وهو من باب حَذْفِ المضافِ.

وقيل: أي: جاءهم الربُّ بالآياتِ العظيمة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: بظُللٍ.

وقيل: جُعل مجيءُ الآياتِ مجيئاً له؛ تفخيماً لشأن تلك الآياتِ، ومنه قولُه[٧] تعالى في الحديث: «يا ابنَ آدمَ، مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، واسْتَسقَيتُك فلم تَسْقِني، واستطعمتُكَ فلم تُطْعِمْني»[٨].

---

(١) ٩/ ٣٢٥، وتفسير الآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف.

(٣) جمع نَشَز، وهو المكان المرتفع. الصحاح (نشز).

(٤) الدكان: المِصْطَبَة. المعجم الوسيط (دكن).

(٥) أخرجه عن ابن عباس مطولاً الطبري ٢٤/ ٣٨٤-٣٨٦، و سلف ١٢/ ١٦٨ و١٩/ ٢٧٠ .

(٦) الوسيط ٤/ ٤٨٤ .

(٧) في (ظ): وهي كقوله.

(٨) أخرجه مطولاً مسلم (٢٥٦٩).

وقيل: «وجاءَ رَبُّك» أي: زالتِ الشُّبَهُ ذلك اليومَ، وصارتِ المعارفُ ضروريةً، كما تزولُ الشُّبَه والشكُّ عند مجيءِ الشيءِ الذي كان يُشَكُّ فيه.

وقال أهلُ الإشارةِ: ظَهَرتْ قدرتُه واسْتَوْلتْ[1]، والله جلَّ ثناؤه لا يُوْصَفُ بالتحوُّلِ من مكانٍ إلى مكان، وأنَّى له التحوُّلُ والانتقالُ، ولا مكانَ له ولا أَوان، ولا يجري عليه وقتٌ ولازمان؛ لأنَّ في جَرَيانِ الوقتِ على الشيء فَوْتُ الأوقات، ومَن فاته شيءٌ فهو عاجِز.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: الملائكةُ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفوفا ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾: قال ابن مسعود ومقاتل: تقادُ جهنَّمُ بسبعين ألفَ زمام، كلُّ زمامٍ بيدِ سبعين ألفَ مَلَكٍ، لها تغيُّظٌ وزفير، حتى تنصبَّ عن يسار العرش[2]. وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنَّم يومئذٍ، لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يَجرُّونها»[3].

وقال أبو سعيد الخُدريُّ: لمَّا نزلت: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تَغيَّر لونُ رسولِ الله ﷺ، وعُرِفَ في وجهه، حتى اشتدَّ على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريلُ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾. قال عليٌّ ﷺ: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُجاءُ بها؟ قال: «يؤتَى بها تقادُ بسبعين ألفَ زمامٍ، يقودُ بكلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَك، فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لو تُرِكَتْ لأَحْرقَتْ أهلَ الجمعِ، ثم تَعْرِضُ لي جهنَّم فتقول: مالي ولك يا مُحمد، إنَّ الله قد حرَّم لحمك عَلَيَّ» فلا يَبْقَى أحدٌ إلَّا قال: نَفْسي نَفْسي! إلَّا محمدٌ ﷺ فإنه يقول: ربِّ أمتي! ربِّ آمتي![4]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويتوبُ. وهو الكافرُ، أو مَن

---

(١) في النسخ الخطية: واستوت.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٢)، سلف ٢١/٣٨٦ .

(٤) خبر علي وخبر أبي سعيد أخرجهما الواحدي في الوسيط ٤/٤٥٨-٤٥٩ في خبر واحد.

هِمَّتُه معظَم الدنيا. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومِن أين له الاتِّعاظُ والتوبةُ وقد فرَّطَ فيها في الدنيا.

ويقال: أي: ومِن أين له مَنْفَعةُ الذِّكرى. فلا بدَّ من تقديرِ حَذْفِ المضافِ، وإلَّا فبَيْنَ «يَوْمَئِذٍ يتذكَّرُ» وبينَ «وأنَّى له الذكرى» تَنَافٍ؛ قاله الزمخشريّ[١].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾

أي: في حياتي. فاللامُ بمعنى في. وقيل: أي: قدَّمتُ عملاً صالحاً لحياتي، أي: لحياةٍ لا موتَ فيها. وقيل: حياةُ أهلِ النارِ ليست هنيئةً، فكأنهم لا حياةَ لهم، فالمعنى: ياليتني قدَّمتُ من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمَن له حياةٌ هنيئةٌ.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذِّبُ كعذابِ الله أَحَدٌ، ولا يُوْثِقُ كوَثاقِه أحدٌ. والكنايةُ ترجعُ إلى الله تعالى. وهو قولُ ابنِ عباسٍ والحسن[٢]. وقرأ الكسائيُّ: «لا يُعَذَّبُ» «ولا يُوثَقُ» بفتح الذَّالِ والثاء[٣]، أي: لا يعذَّب أحدٌ في الدنيا كعذابِ اللهِ الكافرَ يَوْمَئِذٍ، ولا يوثَقُ كما يوثَق الكافر[٤]. والمرادُ إبليسُ؛ لأنَّ الدليل قام على أنه أشدُّ الناسِ عذاباً؛ لأَجْلِ إجرامِه، فأطلق الكلام لأَجْلِ ما صَحِبَه من التفسير.

وقيل: إنه أميةُ بنُ خلف؛ حكاه الفرَّاء[٥]. يعني أنه لا يعذَّبُ كعذاب هذا الكافرِ

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٣) السبعة ص٦٨٥، والتيسير ص٢٢٢.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣، وذكر ابن الجوزي ٩/ ١٢٢ أن هذه القراءة تختص بالآخرة، وأن القراءة الأولى تختص بالدنيا. ومثله قال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

(٥) كذا ذكر المصنف، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٢: وقد وجهه بعضهم على أنه رجل مسمًّى لا يعذَّبُ كعذابه أحد. فلم يعيِّنْه الفراء، وقال البغوي ٤/ ٤٨٦: هو أمية بن خلف.

المعيَّنِ أحدٌ، ولا يوثَقُ بالسلاسلِ والأغلالِ كَوثاقه أحدٌ؛ لِتَناهيه في كُفْرِه وعنادِه.

وقيل: أي: لا يعذِّبُ مَكانَه أحدٌ، فلا يؤخَذُ منه فِداءٌ.

والعذابُ بمعنى التعذيبِ، والوَثاقُ بمعنى الإيثاقِ. ومنه قولُ الشاعر:

وبَعْدَ عَطائِكَ المئةَ الرِّتاعا[1]

وقيل: لا يعذِّبُ أحدٌ ليس بكافرٍ عذابَ الكافرِ.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتحَ الذَّالِ والثاء. وتكونُ الهاء ضميرَ الكافر؛ لأنَّ ذلك معروفٌ: أنه لا يعذِّب أحدٌ كعذاب الله. وقد روى أبو قِلابةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ بفتح الذَّال والثاء[2]. وروي أنَّ أبا عمرو رجع إلى قراءة النبيِّ ﷺ[3].

وقال أبو عليٍّ[4]: يجوزُ أن يكون الضميرُ للكافر على قراءة الجماعة، أي: لا يعذِّبُ أحدٌ أحداً مثلَ تعذيبِ هذا الكافر؛ فتكونُ الهاءُ للكافر. والمرادُ بـ «أحدٌ» الملائكةُ الذين يتولَّوْن تعذيبَ أهلِ النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ لمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدنيا، فاتَّهم اللهَ في إغنائه وإفقاره، ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّتْ نفسُه إلى الله تعالى، فسلَّم لأمره، واتَّكَلَ عليه. وقيل: هو من قولِ الملائكةِ لأولياء الله عزَّ وجلَّ. والنفسُ المطمئنةُ: الساكنةُ المُؤْقِنةُ؛ أيقنتْ أنَّ الله ربُّها، فأَخْبَتَتْ لذلك؛ قاله مجاهدٌ وغيره.

---

(١) وصدره: أكُفراً بعد ردِّ الموت عني، والبيت للقطامي، وهو في ديوانه ص٣٧، وسلف ٥/ ١٠٥، والكلام من تفسير الرزاي٣١/ ١٧٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٩١)، وأبو داود (٣٩٩٦) و(٣٩٩٧).

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٤) في الحجة ٦/ ٤١٢.

وقال ابن عباس: أي: المطمئنةُ بثوابِ الله. وعنه: المؤمنةُ. وقال الحسن: المؤمنةُ الموقنةُ.

وعن مجاهد أيضاً: الراضيةُ بقضاء الله، التي علمت أنَّ ما أخطأها لم يكن لِيُصيبَها، وأنَّ ما أصابها لم يكن لِيُخْطِئَها. وقال مقاتل: الآمنةُ من عذاب الله[١]. وفي حرفِ أُبيّ بن كعب: «يا أيتها النفسُ الآمنةُ المطمئنةُ» [٢].

وقيل: التي عمِلت على يقينٍ بما وَعَدَ الله في كتابه.

وقال ابن كَيسان: المطمئنةُ هنا: المُخْلِصةُ.

وقال ابن عطاء: العارفةُ التي لا تصبرُ عنه طرفةَ عينٍ.

وقيل: المطمئنةُ بذِكْرِ الله تعالى، بيانُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

وقيل: المطمئنةُ بالإيمان، المُصدِّقةُ بالبعث والثواب.

وقال ابن زيد: المطمئنةُ لأنها بشِّرت بالجنة عند الموتِ، وعند البعثِ، ويومَ الجمع[٣].

وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: يعني نفسَ حمزةَ[٤]. والصحيحُ أنَّها عامةٌ في كلِّ نفسٍ مؤمنٍ مخلصٍ طائع.

قال الحسن البصريُّ: إنَّ الله تعالى إذا أراد أن يقبضَ رُوحَ عَبْدِه المؤمِن، اطمأنَّت النفسُ إلى الله تعالى، واطمأنَّ الله إليها[٥].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣-٣٩٥، والوسيط ٤/ ٤٨٧، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

وقال عمرو بن العاص: إذا تُوُفِّيَ المؤمنُ أرسلَ الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحْفةً من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفُس المطمئنةُ راضية مَرْضِيَّةً ومَرْضيًّا عنكِ، اخرُجي إلى رَوْحٍ وريَحْانٍ وربٍّ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المسكِ وَجَدَ أحدٌ من أَنْفِه على ظَهْرِ الأرض. وذَكَر الحديث[١].

وقال سعيد بن جبير[٢]: قرأ رجلٌ عند النبيِّ ﷺ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، فقال أبو بكر: ما أَحْسنَ هذا يا رسولَ الله! فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المَلَكَ سيقولُها لك يا أبا بكر [عند الموت][٣]».

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائرٌ لم يُرَ على خِلْقَتِه طائرٌ قطُّ، فدخل نَعْشَه، ثم لم يُرَ خارجًا منه، فلمَّا دُفِنَ تُلِيَتْ هذه الآيةُ على شَفِيرِ القبر ـ لا يُدْرَى مَن تَلَاها ـ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٤].

وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ حين وقف بئرَ رُومَةَ[٥].

وقيل: نزلت في خُبَيب بن عديٍّ الذي صَلَبه أهلُ مكةَ، وجعلوا وَجْهَه إلى المدينة، فحوَّل الله وجهَه نحو القِبلة[٦]. والله أعلم.

ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجسدِك؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمةُ وعطاء.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٧، والبغوي ٤/ ٤٨٦ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وفيهما: ... فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه. وأخرج نحوه مطولاً أحمد (٨٧٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و (١٨٥٣٤) من حديث البراء ﷺ.

(٢) في (م): زايد، وفي النسخ الخطية: زيد، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٨٣، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن.

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٨٧٩)، والطبراني في الكبير (١٠٥٨١)، والذهبي في السير ٣/ ٣٥٨ وقال: هذه قضية متواترة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

واختاره الطَّبَريُّ[١]، ودليلُه قراءةُ ابنِ عباسٍ: «فادْخُلي في عَبْدي» على التوحيد[٢]، فيأمرُ الله تعالى الأرواحَ غداً أنْ ترجع إلى الأجساد. وقرأ ابن مسعود: «في جَسَدِ عبدي»[٣].

وقال الحسن: ارجعي إلى ثوابِ ربِّكِ وكرامتِه[٤].

وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله. وهذا عند الموت[٥].

﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي: في أجسادِ عبادي، دليلهُ قراءةُ ابنِ عباسٍ وابن مسعود. قال ابن عباس: هذا يومَ القيامة. وقاله الضحَّاك[٦].

والجمهورُ على أنَّ الجنةَ هي دارُ الخلودِ التي هي مَسْكَنُ الأبرارِ، ودارُ الصالحين والأخيار. ومعنى «في عبادي» أي: في الصالحين من عبادي، كما قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩] وقال الأخفش: «في عبادي» أي: في حزبي. والمعنى واحدٌ، أي: انْتَظِمي في سِلْكِهم ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحتسب ٢/ ٣٦٠.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٧، وزاد المسير ٩/ ١٢٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٤/٣٩٧.

تفسير سورة الفجر

وهى مكية .

قال النسائى : أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم ، أخبرنى يحيى بن سعيد ، عن سليمان ، عن محارب بن دِثار وأبى صالح ، عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطَوّل ، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى معه فطَوّل عَلَىّ ، فانصرفت وصليتُ فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى . فقال رسول الله ﷺ : « أفتَّان يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و﴿الشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ و ﴿ الْفَجْرِ ﴾ و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ » [(١)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ .

أما الفجر فمعروف ،وهو : الصبح . قاله على ،وابن عباس ، ومجاهد ،وعكرمة ، والسدى .

وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر .

وقيل : المراد بذلك الصلاة التى تفعل عنده ، كما قاله عكرمة .

وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس .

والليالى العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا :« ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » ــ يعنى عشر ذى الحجة ــ قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » [(٢)] .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم ، حكاه أبو جعفر ابن جرير ولم يعزه إلى أحد [١] .

وقد روى أبو كُدَيْنة ، عن قابوس بن أبى ظِبْيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان .

والصحيح القول الأول ؛ قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عَيَّاش بن عقبة ، حدثنى خَير بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر، عن النبى ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ،والشفع يوم النحر » .

ورواه النسائى عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله ، كل منهما عن زيد بن الحباب ، به [٢] . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث زيد بن الحباب ، به [٣] . وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم ، وعندى أن المتن فى رفعه نكارة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ : قد تقدم فى هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان : وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنى عقبة بن خالد ، عن واصل ابن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : ﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ قلتُ : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهانى ، حدثنى أبى ، عن النعمان ــ يعنى ابن عبد السلام ــ عن أبى سعيد بن عوف ، حدثنى بمكة قال : سمعتُ عبدَ الله ابن الزبير يخطبُ الناس ، فقام إليه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن الشفع والوتر . فقال: الشفع قول الله ، عز وجل : ﴿ **فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ ، والوتر قوله : ﴿ **وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ [البقرة:٢٠٣] .

وقال ابن جريج : أخبرنى محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام [٤] التشريق ، والوتر آخر أيام التشريق .

وفى الصحيحين من رواية أبى هُرَيرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » [٥] .

قول رابع : قال الحسن البصرى ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول .

---

(١) فى أ : « إلى واحد » .

(٢) المسند (٣/٣٢٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧١) .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/١٠٨) .

(٤) فى أ : « الشفع الأيام من » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل .

وقال أبو عبد الله ، عن مجاهد : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : كل شىء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكروه فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع : فى الآية الكريمة رواه ابنُ أبى حاتم وابنُ جَرير من طريق ابن جريج ،ثم قال ابن جرير : وَرُوِى عن النبى ﷺ خبر يؤيد القول الذى ذكرنا عن أبى الزبير : حدثنى عَبد الله بن أبى زياد القطوانى ، حدثنا زيد بن الحباب ، أخبرنى عياش بن عقبة ، حدثنى خير [١] بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث » [٢] .

هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ فى رواية أحمد والنسائى وابن أبى حاتم ، وما رواه هو أيضا ، والله أعلم .

قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ، منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

وقد قال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، عن عمران بن حصين : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال: هى الصلاة المكتوبة ، منها شفع ومنها وتر . وهذا منقطع وموقوف ، ولفظه خاص بالمكتوبة . وقد روى متصلا مرفوعا إلى النبى ﷺ ولفظه عام ، قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود ــ هو الطيالسى ــ حدثنا همام ، عن قتادة ،عن عمران بن عصام : أن شيخا [٣] حدثه من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الشفع والوتر ، فقال: « هى الصلاة ، بعضها شفع ، وبعضها وتر » [٤] .

هكذا وقع فى المسند ،وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَار ، عن عفان وعن أبى كُرَيْب ، عن عبيد الله بن موسى ، كلاهما عن همام ــ وهو ابن يحيى ــ عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن

---

(١) فى أ : « حدثنى القطرانى » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/١٠٩) .

(٣) فى أ : « أن جبيرا » .

(٤) المسند (٤/٤٣٧) .

شيخ، عن عمران بن حصين [١] . وكذا رواه أبو عيسى الترمذى ، عن عمرو بن على ، عن ابن مَهْدِىّ وأبى داود ، كلاهما عن همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حصين ، به . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضا عن قتادة [٢] .

وقد روى عن عمران بن عصام ، عن عمران نفسه ، والله أعلم .

قلت : ورواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام [٣] ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام الضبعى ـ شيخ من أهل البصرة ـ عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فذكره ، هكذا رأيته فى تفسيره ، فجعل الشيخ البصرى هو عمران بن عصام [الضبعى] [٤] .

وهكذا رواه ابن جرير : حدثنا نصر بن على ،حدثنى أبى ، حدثنى خالد بن قيس ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فى الشفع والوتر قال : « هى الصلاة منها شفع ، ومنها وتر » [٥] .

فأسقط ذكر الشيخ المبهم ، وتفرد به عمران بن عصام الضبعى أبو عمارة البصرى ، إمام مسجد بنى ضُبَيعة وهو والد أبى جَمْرَة [٦] نصر بن عمران الضبعى . روى عنه قتادة ، وابنه أبو جمرة [٧] ، والمثنى بن سعيد ، وأبو التياح يزيد بن حميد . وذكره ابن حبَّان فى كتاب الثقات [٨] ، وذكره خليفة ابن خيَاط فى التابعين [٩] من أهل البصرة ، وكان شريفا نبيلا حظيا عند الحجاج بن يوسف ، ثم قتله يوم الزاوية سنة ثلاث [١٠] وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث ، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث الواحد . وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ،والله أعلم .

ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [١١] ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى إذا ذهب .

وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضا .

وقال مجاهد ، وأبو العالية ،وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إذا سار .

وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ،

---

(١) تفسير الطبرى (١٠٩/٣٠) .
(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٢) .
(٣) فى أ : « أخبرنا هشام » .
(٤) زيادة من أ .
(٥) تفسير الطبرى (١٠٩/٣٠) .
(٦،٧) فى أ : « أبى حمزة » .
(٨) الثقات (٢٣٤/٥) .
(٩) فى أ : « المتابعين » .
(١٠) فى م: « سنة ثنتين » .
(١١) فى م : « يسرى » .

أى: أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله :﴿وَالْفَجْرِ ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [١] ﴾ ، على إقباله كان قَسَماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٧ ،١٨] . وكذا قال الضحاك : ﴿ [وَاللَّيْلِ] [٢] إِذَا يَسْرِ ﴾ أى : يجرى .

وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعنى : ليلة جَمْع . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظى ، يقول فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبين إلا بجَمْع .

وقوله : ﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ أى: لذى عقل ولب وحجا [ودين] [٣] ،وإنما سمى العقل حجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ،ومنه حجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى .ومنه حجر اليمامة ،وحَجَرَ الحاكم على فلان :إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٢٢]،كل هذا من قبيل واحد ،ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ،وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها [إليه عباده] [٤] المتقون المطيعون له،الخائفون منه،المتواضعون لديه،الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ،وجعلهم أحاديث وعبَرا ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً ، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧، ٨] .وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون .

فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ [٥] ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم [٦] خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] [٧] ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا

---

(١) فى م : « يسرى » . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) زيادة من م .
(٤) زياة من م ، أ . (٥) فى م : « بعاد إرم » . (٦) فى م : « زيادتهم » .
(٧) فى م ، أ ، هـ : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » والصواب ما أثبتناه .

عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم .

قال مجاهد : إرم : أمة قديمة . يعنى : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسُّدِّيُّ : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والكلبى فى قوله : ﴿ **ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : إنما قيل لهم :﴿ **ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ لطولهم .

واختار الأول ابنُ جرير ، ورد الثانى فأصاب .

وقوله : ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ : أعاد ابن زيد الضميرَ على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال: بنوا عُمُدا بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد، وإنما قال: ﴿ **لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثنى معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام ، عن النبى ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كان الرجل منهم يأتى على صخرة فيحملها على الحى فيهلكهم »[(١)] .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا أنس بن عياض ، عن ثور بن زيد الديلى . قال : قرأت كتابا ــ قد سمى حيث قرأه ــ : أنا شداد بن عاد ، وأنا الذى رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى نظر واحد ، وأنا الذى كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمة محمد ﷺ .

قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم ــ فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بثمود كما هاهنا ، والله أعلم . ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ**﴾ مدينة إما دمشق ، كما روى عن سعيد بن المسيب وعكرمة ، أو اسكندرية كما رُوى عن القُرَظى [(٢)]، أو غيرهما ، ففيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ ، إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لا يُرَد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

---

(١) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى فتح البارى لابن حجر (٨/ ٧٠١) .

(٢) فى أ : « القرطبى » .

وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغْتَرَّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها [(١)] لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها [(٢)] وأبوابها تَصفُر ، ليس بها داع ولا مجيب . وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد ــ فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم فى جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلا من الأعراب ــ وهو عبد الله بن قِلابة ــ في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت ، فبينما هو يتيه فى ابتغائها ، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب ، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذى قال فلم يروا شيئا .

وقد ذكر ابن أبى حاتم قصة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ هاهنا مطولة جداً ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابى فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبال[(٣)] ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة ، وألوان الجواهر واليواقيت [(٤)] واللآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل فى صرفها فى بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويَطْنزُون بهم . والذى يجزم به أن فى الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة ، من ظفر بشىء منها أمكنه تحويله [(٥)] ، فأما على الصفة التى زعموها فكذب وافتراء وبهت ، ولم يصح فى ذلك شىء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادى للصواب .

وقولُ ابن جرير : يحتمل أن يكون المراد بقوله :﴿ إِرَمَ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرَف فيه نظر ؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعنى : يقطعون الصخر بالوادى . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد . ومنه يقال : « مُجتابى النّمار » . إذا خرقوها ، واجتاب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضا . وقال الله تعالى:﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩] .

وأنشد ابن جرير وابن أبى حاتم هاهنا قولَ الشاعر :

---

(١) فى أ : « وأن حصباؤها » وهو خطأ .
(٢) فى م : « وسررها » .
(٣) فى م : « والخيال » .
(٤) فى م : « والياقوت » .
(٥) فى م : « تحويلها » .

ألا كُلّ شيء ــ ما خَلا الله ــ بائدٌ كَما بَاد حَيٌّ من شنيف ومارد
هُم ضَرَبُوا فى كُـلِّ صَمَّاء صَعْـدة بأيد شِداد أَيِّدات السَّواعد [١]

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادى القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة فى سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَاد ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره .ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حَديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى . قال السدى: كان يربط الرجل ،كل قائمة من قوائمه فى وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه [٢] .

وقال قتادة : بلغنا أنه كانت له مَطَالٌ وملاعب ، يلعب له تحتها ، من أوتاد وحبال .

وقال ثابت البنانى ، عن أبى رافع : قيل لفرعون﴿ ذِى الأَوْتَاد ﴾ ؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وقوله :﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاد . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى : تمردوا وعتوا وعاثوا فى الأرض بالإفساد والأذيَّة للناس ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى : أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يَرُدّها عن القوم المجرمين .

وقوله :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ : قال ابن عباس : يسمع ويرى . يعنى : يرصد [٣] خلقه فيما يعملون ، ويجازى كلا بسعيه فى الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً ــ وفى إسناده نظر وفى صحته ــ فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا يونس الحذاء ، عن أبى حمزة البيسانى ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن لدى الحق أسير . يا معاذ ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يُخَلَّف جسر جهنم خلف ظهره . يا معاذ ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته ، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله ، عز وجل ، فالقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والصلاة كهفه ، والصوم جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق أميره ، والحياء وزيره ، وربه ، عز وجل ، من وراء ذلك كله بالمرصاد » [٤] .

قال ابن أبى حاتم : يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان ، وأبو حمزة عن معاذ مرسل . ولو كان عن أبى حمزة لكان حسناً . أى : لو كان من كلامه لكان حسناً . ثم قال ابن أبى حاتم :

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/ ١١٣) .
(٢) فى أ : « فشخده » . (٣) فى أ : « يراصد » .
(٤) ورواه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٣١) من طريق إسحاق بن أبى حسان ، عن أحمد بن أبى الحوارى به ، ورواه أبو نعيم فى الحلية (١/ ٢٦) من طريق عبد الملك بن أبى كريمة ، عن أبى حاجب ، عن عبد الرحمن، عن معاذ مرفوعاً بنحوه .

حدثنا أبى ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أيفع بن عبد الكلاعى : أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول : إن لجهنم سبع قناطر ــ قال : والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى ، فيقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال : فيحاسبون على الصلاة ويُسألون عنها ، قال : فيهلك فيها من هلك ، وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدوها ، وكيف خانوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وَصَلُوها وكيف قطعوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا . قال : والرحم يومئذ متدلية إلى الهُوِىّ فى جهنم تقول : اللهم من وصلنى فَصِلْه ،ومن قطعنى فاقطعه . قال :وهى التى يقول الله عز وجل :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

هكذا أورد هذا الأثر ، ولم يذكر تمامه .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيَّق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، كما جاء فى الحديث الذى رواه عبد الله ابن المبارك ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن يحيى بن سليمان ، عن زيد بن أبى عتاب [(١)] ، عن أبى هُريرة ، عن النبى ﷺ : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » ثم قال بأصبعه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » [(٢)] .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا عبد العزيز ــ يعنى ابن أبى حازم ــ حدثنى أبى ، عن سهل ــ يعنى ابن سعد ــ أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن [(٣)] بين إصبعيه : الوسطى والتى تلى الإبهام [(٤)] .

---

(١) فى م : « غياث » .

(٢) الزهد لابن المبارك برقم (٦٥٤) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٦٧٩) من طريق ابن المبارك ، وقال البوصيرى فى الزوائد (١٦٥/٣) : « هذا إسناد ضعيف ، يحيى بن سليمان ــ أبو صالح ــ قال فيه البخارى : منكر ، وقال أبو حاتم : مضطرب الحديث، وذكره ابن حبان فى الثقات » .

(٣) فى أ : « وفرق » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٥٠) وهو فى صحيح البخارى برقم (٦٠٠٥) من طريق ابن أبى حازم به .

﴿ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعنى : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعنى : الميراث ﴿ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً ـ زاد بعضهم : فاحشا .

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعنى : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون [1] إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى النوبة إلى محمد ﷺ [2] فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات ، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة «سبحان» [3] ،فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفا .

وقوله : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن [4] غياث ، حدثنا أبى ، عن العلاء بن خالد الكاهلى ، عن شقيق ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها » .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن عمر بن حفص ، به [5]، ورواه أيضا عن عبد بن حُمَيد ، عن أبى عامر ، عن سفيان الثورى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ابن سلمة ـ وهو أبو وائل ـ عن عبد الله بن مسعود ، قوله ولم يرفعه [6] . وكذا رواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن مَروان بن معاوية الفزارى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قوله [7] .

---

(١) فى أ : « يشفعون » .
(٢) فى م : « صلوات الله وسلامه عليه » .
(٣) عند تفسير الآية : ٧٩ .
(٤) فى أ : « نبأنا » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٠) .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى ـ إن كان عاصيا ـ ويود لو كان ازداد من الطاعات ـ إن كان طائعا ـ كما قال الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ حدثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نفير ، عن محمد بن أبى عَميرة ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرماً فى طاعة الله ، لَحَقَرَه يوم القيامة ، ولودَّ أنه يُرَدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب .

ورواه بَحِيرُ بنُ سَعد ، عن خالد بن مَعْدانَ ، عن عتبة بن عبد ، عن رسول الله ﷺ [١] .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين [٢] . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ، ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أى : فى نفسها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ، فروى الضحاك ، عن ابن عباس : نزلت فى عثمان ابن عفان . وعن بُرَيدة بن الحُصَيب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

وروى عنه أنه كان يَقرؤها : « فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى ».وكذا [٣] قال عكرمة والكلبى، واختاره ابن جرير ، وهو غريب ، والظاهر الأول ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام:٦٢]، ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا [٤] إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر:٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدَّشْتكِى، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى

---

(١) المسند (٤/ ١٨٥) .

(٢) فى أ : « والعالمين » . (٣) فى م : « وكذلك » .

(٤) فى م : « وأن مصيرنا » وهو خطأ .

قوله : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، قال : نزلت وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا . فقال : « أما إنه سيقال لك هذا » [١].

ثم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن سعيد بن جبير قال : قرأت عند النبى ﷺ : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : إن هذا حسن . فقال له النبى ﷺ : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن ابن يمان ، به . وهذا مرسل حسن [٢] .

ثم قال ابن أبى حاتم : وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزرى ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خَلْقه [٣] ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِى فِى عِبَادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

رواه الطبرانى عن عبد الله بن أحمد عن أبيه ، عن مَرْوان بن شجاع ، عن سالم بن عجلان الأفطس ، به فذكره [٤] .

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروى ــ المعروف بشكَّر ــ فى كتاب « العجائب » بسنده عن قُبَاث بن رزين أبى هاشم قال : أسرتُ فى بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعَرَض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقى رأسه فى نهر هناك ، فرسب فى الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان ــ يناديهم بأسمائهم ــ قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِى فِى عِبَادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ . ثم غاص فى الماء ، [قال] [٥] ، فكادت النصارى أن يسلموا ، ووقع سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام . قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبى جعفر المنصور فخلصنا .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رواحة بنت أبى عمرو الأوزاعى ، عن أبيها : حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى ، حدثنى أبو أمامة : أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قل : اللهم ، إنى أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » [٦] .

ثم روى عن سليمان بن زَبْر أنه قال : حديث رواحة هذا واحد أمّه .

آخر تفسير سورة « الفجر » ولله الحمد [والمنة] [٧]

---

(١) ورواه ابن مردويه والضياء المقدسى فى المختارة كما فى الدر المنثور (٨/ ٥١٣) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٢) ورواه عبد بن حميد وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية كما فى الدر المنثور (٨/ ٥١٣) .

(٣) فى م : « على خلقته » .

(٤) المعجم الكبير (١٠/ ٢٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٨٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) زيادة من م .

(٦) تاريخ دمشق (ص ١٠٠) « تراجم النساء » ط ــ المجمع العربى بدمشق ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ١١٨) من طريق عبد الرحمن بن عبد الغفار ، عن رواحة بنت عبد الرحمن به .

(٧) زيادة من م ، أ .

٨٩ — سورة الفجر

(مكية وهى ثلاثون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْفَجْرِ (١) ٨٩ الفجر

وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) ٨٩ الفجر

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) ٨٩ الفجر

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) ٨٩ الفجر

هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) ٨٩ الفجر

﴿ سورة الفجر مكية وآيها ثلاثون ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (والفجر) أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال والصبح إذا تنفس وقيل المراد به صلاته (وليال عشر) هن عشر ذى الحجة ولذلك فسر الفجر بفجر عرفة

٢ أو النحر أو العشر الأواخر من رمضان وتنكيرها للتفخيم وقرىء وليال عشر بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام (والشفع والوتر) أى الأشياء كلها شفعها ووترها أو شفع هذه الليالى ووترها

٣ وقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام فسرهما بيوم النحر ويوم عرفة ولقد كثرت فيهما الأقوال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقرىء بكسر الواو وهما لغتان كالحبر والحبر وقيل الوتر بالفتح فى العدد وبالكسر فى الذحل وقرىء والوتر بفتح الواو وكسر التاء (والليل إذا يسر) أى يمضى كقوله تعالى

٤ والليل إذا أدبر والليل إذا عسعس والتقييد لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة أو يسرى فيه من قولهم صلى المقام أى صلى فيه وحذف الياء اكتفاء بالكسر وقرىء بإثباتها على الإطلاق وبحذفها فى الوقف خاصة وقرىء يسر بالتنوين كما قرىء والفجر والوتر وهو التنوين الذى يقع بدلا

٥ من حرف الإطلاق (هل فى ذلك قسم) الخ تحقيق وتقرير لفخامة شأن المقسم بها وكونها أمورا جليلة حقيقة بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول وتنبيه على أن الإقسام بها أمر معتد به خليق بأن يؤكد به الإخبار على طريقة قوله تعالى وإنه لقسم لو تعلمون عظيم وذلك إشارة إما إلى الأمور المقسم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ ٨٩ الفجر

إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٨٩ الفجر

بها والتذكير بتأويل ماذكر كما مر تحقيقه أو إلى الإقسام بها وأياً ما كان فما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الشرف والفضل أى هل فيما ذكر من الأشياء قسم أى مقسم به (لذى حجر) يراه حقيقاً بأن يقسم به إجلالا وتعظيما والمراد تحقيق أن الكل كذلك وإنما أوثرت هذه الطريقة هضما للخلق وإيذاناً بظهور الأمر أوهل فى إقسامى بتلك الأشياء إقسام لذى حجر مقبول عنده يعتد به ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه والحجر العقل لأنه يحجر صاحبه أى يمنعه من التهافت فيما لا ينبغى كما سمى عقلا ونهية لأنه يعقل وينهى وحصاة أيضاً من الإحصاء وهو الضبط قال الفراء يقال إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن كما ينبىء عنه قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) الخ فإنه استشهاد بعلمه عليه الصلاة والسلام بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام فى الطغيان والفساد على طريقة قوله تعالى ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه الآية وقوله تعالى ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون كأنه قيل ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ونظائرهم فيعذب هؤلاء أيضاً لاشتراكهم فيما يوجبه من الكفر والمعاصى والمراد بعاد أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام سموا باسم أبيهم كما سمى بنو هاشم هاشماً وقد قيل لأوائلهم عاد الأولى ولأواخرهم عاد الآخرة قال عماد الدين بن كثير كل ما ورد فى القرآن خبر عاد الأولى إلا ما فى سورة الأحقاف وقوله تعالى (إرم) عطف بيان لعاد للإيذان بأنهم عاد الأولى بتقدير مضاف أى سبط إرم أو أهل إرم على ماقيل من أن إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التى كانوا فيها ويؤيده القراءة بالإضافة وأياً ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث وقرىء إرم بإسكان الراء تخفيفاً كما قرىء بورقكم (ذات العماد) صفة لإرم أى ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة ومنه قولهم رجل عمد وعمدان إذا كان طويلا أو ذات الخيام والأعمدة حيث كانوا بدويين أهل عمد أو ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين على أن إرم اسم بلدتهم وقرىء إرم ذات العماد بإضافة إرم إلى ذات العماد والإرم العلم أى بعاد أهل أعلام ذات العماد على أنها اسم بلدتهم وقرىء أرم ذات العماد أى جعلها الله تعالى رميا بدل من فعل ربك وقيل هى جملة دعائية اعترضت بين الموصوف والصفة وروى أنه كان لعاد ابنان شديد وشداد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال أبنى مثلها فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار إليها أهل مملكته فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا وعن عبدالله بن قلابة

ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ ٨٩ الفجر

وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ ٨٩ الفجر

وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٨٩ الفجر

ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ ٨٩ الفجر

فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ ٨٩ الفجر

فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ٨٩ الفجر

أنه خرج فى طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثمة وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقص عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال هى إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج فى طلب إبل له ثم التفت إلى ابن قلابة فقال هذا والله ذلك الرجل (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) صفة أخرى لإرم أى لم يخلق مثلهم فى عظم الأجرام والقوة ٨ حيث كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع وكان يأتى الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحى فيهلكهم أو لم يخلق مثل مدينة شداد فى جميع بلاد الدنيا وقرىء لم يخلق على إسناده إلى الله تعالى (وثمود) عطف ٩ على عاد وهى قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود أخى جديس وهما ابنا عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك وكانوا يعبدون الأصنام كعاد (الذين جابوا الصخر بالواد) أى قطعوا صخر الجبال فاتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر * كقوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتاً قيل هم أول من نحت الجبال والصخور والرخام وقد بنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة (وفرعون ذى الأوتاد) وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التى ١٠ يضربونها فى منازلهم أو لتعذيبه بالأوتاد (الذين طغوا فى البلاد) إما مجرور على أنه صفة للمذكورين ١١ أو منصوب أو مرفوع على الذم أى طغى كل طائفة منهم فى بلادهم وكذا الكلام فى قوله تعالى (فأكثروا فيها الفساد) أى بالكفر وسائر المعاصى (فصب عليهم ربك) أى أنزل إنزالا شديداً ١٢، ١٣ على كل طائفة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلته من الطغيان والفساد (سوط عذاب) أى عذاب * شديد لا يدرك غايته وهو عبارة عما حل بكل منهم من فنون العذاب التى شرحت فى سائر السور الكريمة وتسميته سوطاً للإشارة إلى أن ذلك بالنسبة إلى ما أعد لهم فى الآخرة بمنزلة السوط عند السيف والتعبير عن إنزاله بالصب للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه فإنه عبارة عن إراقة شىء مائع أو جار مجراه فى السيلان كالرمل والحبوب وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار ونسبته إلى السوط مع أنه ليس من ذلك القبيل باعتبار تشبيهه فى نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشىء المصبوب وقيل السوط

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾	٨٩ الفجر
فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾	٨٩ الفجر
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾	٨٩ الفجر
كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾	٨٩ الفجر

خلط الشيء بعضه ببعض فالمعنى ماخلط لهم من أنواع العذاب وقد فسر بالنصيب وبالشدة أيضاً لأن السوط يطلق على كل منهما لغة فلا حاجة حينئذ فى تشبيهه بالمصبوب إلى اعتبار تكرر تعلقه بالمعذب

١٤ كما فى المعنى الأول فإن كل واحد من هذه المعانى مما يقبل الاستمرار فى نفسه وقوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد) تعليل لما قبله وإيذان بأن كفار قومه عليه الصلاة والسلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام وقيل هو جواب القسم ومابينهما اعتراض والمرصاد المكان الذى يترقب فيه الرصد مفعال

١٥ من رصده كالميقات من وقته وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لايفوتونه وقوله تعالى (فأما الإنسان) الخ متصل بما قبله كأنه قيل أنه تعالى بصدد مراقبة أحوال عباده ومجازاتهم بأعمالهم خيراً

* وشراً فأما الإنسان فلا يهمه ذلك وإنما مطمح أنظاره ومرصد أفكاره الدنيا ولذائذها (إذا ما ابتلاه

* ربه) أى عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار والفاء فى قوله تعالى (فأكرمه ونعمه) تفسيرية فإن

* الإكرام والتنعيم من الابتلاء (فيقول ربى أكرمن) أى فضلنى بما أعطانى من المال والجاه حسبما كنت استحقه ولايخطر بباله أنه فضل تفضل به عليه ليبلوه أيشكر أم يكفر وهو خبر للمبتدأ الذى هو الإنسان والفاء لما فى أما من معنى الشرط والظرف المتوسط على نية التأخير كأنه قيل فأما الإنسان فيقول ربى أكرمن وقت ابتلائه بالإنعام وإنما تقديمه للإيذان من أول الأمر بأن الإكرام والتنعيم

١٦ بطريق الابتلاء ليتضح اختلال قوله المحكى (وأما إذا ما ابتلاه) أى وأما هو إذا ما ابتلاه ربه

* (فقدر عليه رزقه) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة (فيقول ربى أهانن) ولايخطر بباله أن ذلك ليبلوه أيصبر أم يجزع مع أنه ليس من الإهانة فى شىء بل التقتير قد يؤدى إلى كرامة الدارين والتوسعة قد تفضى إلى خسرانهما وقرىء فقدر بالتشديد وقرىء أكرمنى وأهاننى بإثبات الياء وأكرمن

١٧ وأهانن بسكون النون فى الوقف (كلا) ردع للإنسان عن مقالته المحكية وتكذيب له فيها فى كلتا الحالتين قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته على ولم أبتله بالفقر لهوانه على

* بل ذلك لمحض القضاء والقدر وحمل الردع والتكذيب إلى قوله الأخير بعيد وقوله تعالى (بل لاتكرمون اليتيم) انتقال من بيان سوء أقواله إلى بيان سوء أفعاله والالتفات إلى الخطاب للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديداً للتقريع وتأكيداً للتشنيع والجمع باعتبار

وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ — ٨٩ الفجر

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ — ٨٩ الفجر

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ — ٨٩ الفجر

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ — ٨٩ الفجر

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ — ٨٩ الفجر

وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ — ٨٩ الفجر

معنى الإنسان إذ المراد هو الجنس أى بل لكم أحوال أشد شراً مما ذكر وأدل على تهالككم على المال حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة به وقرىء لا يكرمون (ولا تحاضون) بحذف إحدى التاءين من تتحاضون أى لا يحض بعضكم بعضاً (على طعام المسكين) ١٨ أى على إطعامه وقرىء تحاضون من المحاضة وقرىء يحضون بالياء والتاء (وتأكلون التراث) أى ١٩ الميراث وأصله وارث (أكلا لما) أى ذا لم أى جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون * النساء والصبيان ويأكلون أنصباءهم أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك (وتحبون ٢٠ المال حباً جماً) كثيراً مع حرص وشره وقرىء يحبون بالياء (كلا) ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى ٢١ (إذا دكت الأرض دكا دكا) الخ استئناف جىء به بطريق الوعيد تعليلا للردع أى إذا دكت الأرض * دكا متتابعاً حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنيه وقصور حين زلزلت وصارت هباء منبثاً وقيل الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية فالمعنى إذا سويت تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شىء حتى صارت كالصخرة الملساء وأياً ما كان فهو عبارة عما عرض لها عند النفخة الثانية (وجاء ربك) ٢٢ أى ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من أحكام هيبته وسياسته وقيل جاء أمره تعالى وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل (والملك صفاً صفاً) أى مصطفين أو ذوى * صفوف فإنه ينزل يومئذ ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس (وجىء يومئذ بجهنم) كقوله تعالى وبرزت الجحيم قال ابن مسعود ومقاتل تقاد جهنم ٢٣ بسبعين ألف زمام كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير وقد رواه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود مرفوعا (يومئذ) بدل من إذا دكت والعامل فيهما قوله تعالى * (يتذكر الإنسان) أى يتذكر ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه على أن * الأعمال تتجسم فى النشأة الآخرة فيبرز كل من الحسنات والسيئات بما يناسبها من الصور الحسنة

يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ٨٩ الفجر

فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ ٨٩ الفجر

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ٨٩ الفجر

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٨٩ الفجر

والقبيحة أو يتعظ وقوله تعالى (وأنى له الذكرى) اعتراض جيء به لتحقيق أنه ليس يتذكر حقيقة لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه فى أوانه وأنى خبر مقدم والذكرى مبتدأ وله متعلق بما تعلق به الخبر أى ومن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها وقيل هناك مضاف محذوف أى وأنى له منفعة الذكرى والاستدلال به على عدم وجوب قبول التوبة فى دار التكليف مما لا وجه له على أن تذكره

٢٤ ليس من التوبة فى شيء فإنه عالم بأنها إنما تكون فى الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) وهو بدل اشتمال من يتذكر أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول ياليتنى عملت لأجل حياتى هذه أو وقت حياتى فى الدنيا أعمالا صالحة أنتفع بها اليوم وليس فى هذا التمنى شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وإنما الذى يدل عليه ذلكَ اعتقاد كونه متمكناً من تقديم الأعمال الصالحة وأما أن ذلك بمحض قدرته أو بخلق الله تعالى عند صرف قدرته الكاسبة إليه فكلا وأما ما قيل من أن المحجور قد يتمنى إن كان ممكناً منه فربما يوهم أن من صرف قدرته إلى أحد طرفى الفعل يعتقد أنه محجور من الطرف الآخر وليس كذلك بل كل أحد جازم بأنه لو صرف قدرته إلى أى طرف كان من أفعاله الاختيارية لحصل وعلى هذا يدور فلك التكليف

٢٥ وإلزام الحجة (فيومئذ) أى يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال (لايعذب عذابه أحد)

٢٦ (ولا يوثق وثاقه أحد) الهاء لله تعالى أى لايتولى عذاب الله تعالى ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له أو للإنسان أى لايعذب أحد من الزبانية مثل مايعذبونه وقرىء الفعلان على البناء للمفعول والضمير للإنسان أيضاً وقيل المراد به أبي بن خلف أى لايعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه فى الكفر والعناد وقيل لايحمل عذاب الإنسان أحد كقوله تعالى ولا تزر وازرة

٢٧ وزر أخرى وقوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله عز وجل وطاعته إثر حكاية أحوال من اطمأن بالدنيا وصفت بالاطمئنان لأنها تترقى فى معارج الأسباب والمسببات إلى المبدأ المؤثر بالذات فتستقر دون معرفته وتستغنى به فى وجودها وسائر شؤنها عن غيره بالكلية وقيل هى النفس المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لايخالجها شك ما وقيل هى الآمنة التى لايستفزها خوف ولاحزن ويؤيده أنه قرىء يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة أى يقول

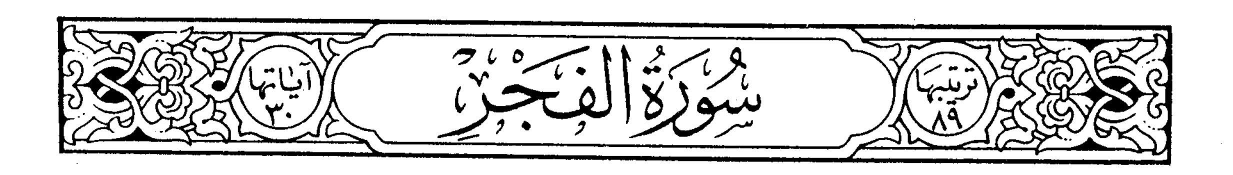
ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ٨٩ الفجر

فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ ٨٩ الفجر

وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ٨٩ الفجر

الله تعالى ذلك بالذات كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان الملك عند تمام حساب الناس وهو الأظهر وقيل عند البعث وقيل عند الموت (ارجعى إلى ربك) أى إلى موعده أو إلى أمره (راضية) بما أوتيت من النعيم المقيم (مرضية) عند الله عز وجل (فادخلى فى عبادى) فى زمرة عبادى الصالحين المختصين بى (وادخلى جنتى) معهم أو انتظمى فى سلك المقربين واستضيئى بأنوارهم فإن الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة وقيل المراد بالنفس الروح والمعنى فادخلى أجساد عبادى التى فارقت عنها وادخلى دار ثوابى وهذا يؤيد كون الخطاب عند البعث وقرىء فادخلى فى عبدى وقرىء فى جسد عبدى وقيل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وقيل فى حبيب بن عدى رضى الله عنهما والظاهر العموم . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفجر فى الليالى العشر غفر له ومن قرأها فى سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة .

٢٨ ٢٩ ٣٠



مكية في قول الجمهور. وقال علي بن أبي طلحة: مدنية وآيها اثنتان وثلاثون آية في الحجازي، وثلاثون في الكوفي والشامي، وتسع وعشرون في البصري. ولما ذكر سبحانه فيما قبلها ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ [الغاشية: ٣] و ﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾ [الغاشية: ٨] أتبعه تعالى بذكر الطوائف المكذبين من المتجبرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار جل شأنه إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله سبحانه فيها ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾ [الفجر: ٢٧] وأيضاً فيها مما يتعلق بأمر الغاشية ما فيها. وقال الجلال السيوطي: لم يظهر لي في وجهه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها أو على ما يتضمنه من الوعد والوعيد هذا مع أن جملة ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ [الفجر: ٦] مشابهة لجملة ﴿أفلا ينظرون﴾ [الغاشية: ١٧] وها كما ترى.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ﴾ أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم عز وجل بالصبح في قوله تعالى ﴿والصبح إذا تنفس﴾ [التكوير: ١٨] فالمراد به الفجر المعروف كما روي عن عليّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن الزبير وغيرهم رضي الله تعالى عنهم. وقيل: المراد عموده وضوءه الممتد وأصله شق الشيء شقاً واسعاً، وسمي الصبح فجراً لكونها فاجراً لليل وهو كاذب لا يتعلق به حكم الصوم والصلاة وصادق به يتعلق حكمهما وقد تكلموا في سبب كل بما يطول وتقدم بعض منه، ولعل المراد به هنا الصادق فهو أحرى بالقسم به والمراد عند كثير جنس الفجر لا فجر يوم مخصوص. وعن ابن عباس ومجاهد فجر يوم النحر، وعن عكرمة فجر يوم الجمعة، وعن الضحاك فجر ذي الحجة، وعن مقاتل فجر ليلة جمع. وأخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الشعب عن ابن عباس أنه قال: هو فجر المحرم فجر السنة، وروي نحوه عن قتادة وعن الحبر أيضاً أنه النهار كله. وأخرج ابن جرير عنه أيضاً أنه قال: يعني صلاة الفجر وروي نحوه عن زيد بن أسلم فهو إما على تقدير مضاف أو على إطلاقه على الصلاة مجازاً وهو شائع. وقيل: المراد فجر العيون من الصخور وغيرها ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هن العشر الأولى من الأضحى كما أخرج الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس، وروي عن ابن الزبير ومسروق ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم وأخرج ذلك أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبزار وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن جابر يرفعه، ولها من الفضل ما لها. وقد أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام فيهن العمل أحب إلى الله عز وجل وأفضل من أيام العشر» قيل: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء» وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنهن العشر الأواخر من رمضان. وروي أيضاً عن الضحاك بل زعم التبريزي الاتفاق على أنهن هذه العشر وأنه لم يخالف فيه أحد واستدل له بعضهم بالحديث المتفق على صحته. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ـ تعني العشر الأواخر من رمضان ـ شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله وتعقبه بعضهم بأن ذلك محتمل لأن يحظى عليه الصلاة والسلام بليلة القدر لأنها فيها لا لكونه العشر المرادة هنا. وعن ابن جريج أنهن العشر الأول من رمضان، وعن يمان وجماعة أنهن العشر الأول من المحرم وفيها يوم عاشوراء وقد ورد في فضله ما ورد. أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺالمدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا اليوم الذي تصومونه»؟ قالوا: يوم عظيم أنجى الله تعالى فيه موسى وأغرق آل فرعون فيه، فصامه موسى عليه السلام شكراً فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق بموسى منكم» فصامه ﷺ وأمر بصيامه. وصح في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام أرسل غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حول المدينة «من كان أصبح صائماً فليتمَّ يومه، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه» فكان الصحابة بعد ذلك يصومونه ويصوِّمونه صبيانهم الصغار ويذهبون بهم إلى المسجد ويجعلون لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار. وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال: قال رسول الله ﷺ: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً» وجاء في الأمر بالتوسعة فيه على العيال عدة أحاديث ضعيفة لكن قال البيهقي هي وإن كانت ضعيفة إذا ضم بعضها إلى بعض أحد قوة وأيًّا ما كان فتنكيرها للتفخيم وقل للتبعيض لأنها بعض ليالي السنة أو الشهر والتفخيم أولى. قيل: ولولا قصد ما ذكر كان

الظاهر تعريفها كأخواتها لأنها ليال معهودة معينة، وقدر بعضهم على إرادة صلاة الفجر فيما مر مضافاً هنا أي وعبادة ليال ويقال نحوه فيما بعد على بعض الأقوال فيه وليس بلازم ولا أثر فيه. وقرأ ابن عباس بالإضافة فضبطه بعضهم ﴿وليال عشر﴾ بلازم دون ياء وبعضهم «وليالي عشر» بالياء وهو القياس والمراد وليالي أيام عشر فحذف الموصوف وهو المعدود وفي مثل ذلك يجوز التاء وتركها في العدد ومنه واتبعه بست من شوال وما حكاه الكسائي ضمناً من الشهر خمساً والمرجح للترك ها هنا وقوعه فاصلة وجوز أن تكون بالإضافة بيانية وهو خلاف الظاهر.

﴿والشَّفْع وَالوَتْرِ﴾ هما على ما في حديث جابر المرفوع الذي أشرنا إليه فيما تقدم يوم النحر ويوم عرفة. وقال الطيبي: روينا عن الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ سئل عن الشفع والوتر فقال: «الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر» ثم قال: «هذا هو التفسير الذي لا محيد عنه» انتهى. وقد رواه عن عمران أيضاً عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم وصححه، لكن في البحر أن حديث جابر أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين ووراء ذلك أقوال كثيرة، فأخرج عبد بن حميد عن الحسن أنه قال: «أقسم ربنا بالعدد كله منه الشفع ومنه الوتر» وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد أنه قال «الخلق كله شفع ووتر فأقسم سبحانه بخلقه» وأخرج ابن المنذر وجماعة عنه أنه قال: الله تعالى الوتر وخلقه سبحانه الشفع الذكر والأنثى» وروي نحوه عن أبي صالح ومسروق وقرأ ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [الذاريات: ٤٩] وقيل: المراد شفع تلك الليالي ووترها، وقيل الشفع أيام عاد والوتر لياليها. وقيل: الشفع أبواب الجنة والوتر أبواب النار وقيل غير ذلك. وقد ذكر في كتاب التحرير والتحبير مما قيل فيهما ستاً وثلاثين قولاً وفي الكشاف: قد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه وذلك قليل الطائل جدير بالتلهي عنه. وقال بعض الأفاضل: لا إشعار للفظ الشفع والوتر بتخصيص شيء مما ذكروه وتعيينه بل هو إنما يدل على معنى كلّي متناول لذلك، ولعل من فسّرهما بما فسرهما لم يدع الانحصار فيما فسر به بل أفرد بالذكر من أنواع مدلولهما ما رآه أظهر دلالة على التوحيد أو مدخلاً في الدين أو مناسبة لما قبل أو لما بعد أو أكثر منفعة موجبة للشكر أو نحو ذلك من النكات، وإذا ثبت من الشارع عليه الصلاة والسلام تفسيرهما ببعض الوجوه فالظاهر أنه ليس مبنياً على تخصيص المدلول بل وارد على طريق التمثيل بما رأى في تخصيصه بالذكر فائدة معتداً بها فحينئذ يجوز للمفسر أن يحمل اللفظ على بعض آخر من محتملاته لفائدة أخرى انتهى. وهو ميل إلى أن أل فيهما للجنس لا للعهد، والظاهر أن ما تقدم من الحديثين من باب القطع بالتعيين دون التمثيل لكن يشكل أمر التوفيق بينهما حينئذ وإذا صح ما قال في البحر كان المعول عليه حديث جابر رضي الله تعالى عنه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. وقرأ حمزة والكسائي والأغر عن ابن عباس وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلاف عنه «والوِتْر» بكسر الواو وهي لغة تميم والجمهور على فتحها وهي لغة قريش وهما لغتان كالحبر والحبر بمعنى العالم على ما قال صاحب المطلع في الوتر المقابل للشفع وأما في ﴿الوتر﴾ بمعنى الترة أي الحقد فالكسر هو المسموع وحده والأصمعي حكى فيه أيضاً اللغتين وقرأ يونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء وهو إما لغة أو نقل حركة الواو في الوقف لما قبلها.

﴿واللَّيلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي يمضي كقوله تعالى ﴿والليل إذا أدبر﴾ [المدثر: ٣٣] و ﴿الليل إذا عسعس﴾ [التكوير: ١٧] والظاهر أنه مجاز مرسل أو استعارة ووجه الشبه كالنهار و ﴿إذا﴾ على ما صرح به العلامة

التفتازاني في التلويح بدل من ﴿الليل﴾ وخروجها عن الظرفية مما لا بأس به، أو ظرف متعلق بمضاف مقدر وهو العظمة على ما اختاره بعضهم، والإقسام بذلك الوقت أو تقييد العظمة به لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة أو يسري فيه على ما نقل أبو حيان عن الأخفش وابن قتيبة، كقولهم: صلى المقام أي صلى فيه على أنه تجوز فيه الإسناد بإسناد ما للشيء للزمان كما يسند للمكان، وأيًّا ما كان فالمراد بالليل جنسه. وقال مجاهد وعكرمة والكلبي: المراد به ليلة النحر وهي يسري الحاج فيها إلى المزدلفة بعد الإفاضة من عرفات وليس بذاك، والإقسام والتقييد على الوجه الأخير لما في السير في الليل من نعمة الحفظ من حر الشمس وشر قطاع الطريق غالباً وحذفت الياء عند الجمهور وصلاً ووقفاً من آخر ﴿يسر﴾ مع أنها لام مضارع غير مجزوم اكتفاء عنها بالكسرة للتخفيف ولتتوافق رؤوس الآي ولذا وسمت كذلك في المصاحف، ولا ينبغي أن يقال إنها حذفت لسقوطها في خطها فإنه يقتضي أن القراءة باتباع الرسم دون رواية سابقة عليه وهو غير صحيح. وخص نافع وأبو عمرو في رواية هذا الحذف بالوقف لمراعاة الفواصل ولم يحذف مطلقاً ابن كثير ويعقوب. وفي تفسير البغوي سئل الأخفش عن علة سقوط ياء ﴿يسر﴾ فقال: الليل لا يسري ولكن يسرى فيه وهو تعليل كثيراً ما يسأل عنه لخفائه والجواب أنه أراد أنه لما عدل عن الظاهر في المعنى وغيرهما كان حقه معنى غير لفظه لأن الشيء يجر جنسه لإلفه به:

إن الطيور على أمثالها تقع

وهذا كما قيل في قوله تعالى ﴿ما كانت أمك بغيا﴾ [مريم: ٢٨] أنه لما عدل عن باغية أسقطت منه التاء ولم يقل بغية، ومثله من بدائع اللغة العربية ويمكن التعليل بنحوه على تفسير ﴿يسر﴾ بيمضي لما فيه من العدول عن الظاهر في المعنى أيضاً علمت من أنه مجاز في ذلك. وقرأ أبو الدينار الأعرابي و «الفجر» و «الوتر» و «يسر» بالتنوين في الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وقف على أواخر القوافي بالتنوين وإن كانت أفعالاً أو فيها أل نحو قوله:

أقلي اللوم عاذل والعتابن ... وقولي إن أصبت لقد أصابن

انتهى. وهذا كما قال أبو حيان ذكره النحويون في القوافي المطلقة يعني المحركة إذا لم يترنم الشاعر وهو أحد وجهين للعرب إذا لم يترنموا، والوجه الآخر الوقوف فيقولون: العتاب وأصاب كحالهم إذا وقفوا على الكلمة في النثر، وهذا الأعرابي أجرى الفواصل مجرى الوقف وعاملها معاملة القوافي المطلقة ويسمى هذا التنوين تنوين الترنم ولا اختصاص له بالاسم، ويغلب على ظني أنه قيل يكتب نوناً بخلاف أقسام التنوين المختصة بالاسم. وقوله تعالى ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ الخ تحقيق وتقرير لفخامة الأشياء المذكورة المقسم بها وكونها مستحقة لأن تعظم بالإقسام بها فيدل على تعظيم المقسم عليه وتأكيده من طريق الكناية فذلك إشارة إلى المقسم به وما فيه من معنى البعد لزيارة تعظيمه أي هل فيما ذكر من الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي مقسم به ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ أي هل يحق عنده أن يقسم به إجلالاً وتعظيماً، والمراد تحقيق أن الكل كذلك وإنما أوثرت هذه الطريق هضماً للحق وإيذاناً بظهور الأمر، وهذا كما يقول المتكلم بعد ذكر دليل واضح الدلالة على مدعاة هل دل هذا على ما قلناه. وجوز أن يكون التحقيق أن ذوي الحجر يؤكدون بمثل ذلك المقسم عليه فيدل أيضاً على تعظيمه وتأكيده فذلك إشارة إلى المصدر أعني الإقسام هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسام لذي حجر مقبول عنده يعتد به ويفعل مثله ويؤكد به المقسم عليه؟ وحاصل الوجهين فيما يرجع إلى تأكيد المقسم

عليه واحد إلاّ أن الوجه مختلف كما لا يخفى، ولعل الأول أظهر والحجر العقل لأنه يحجر صاحبه أي يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونهية لأنه يعقل وينهى وحصاة من الإحصاء وهو الضبط. وقال الفرّاء: يقال إنه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها والمقسم عليه محذوف وهو ليعذبن كما ينبىء عنه قوله تعالى شأنه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ الخ فإنه استشهاد بعلمه ﷺ بما يدل عليه من تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام في الطغيان والفساد على طريقة ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ [البقرة: ٢٥٨] الآية وقوله سبحانه ﴿ألم ترى أنهم في كل واد يهيمون﴾ [الشعراء: ٢٢٥] وقال أبو حيان: الذي يظهر أنه محذوف يدل عليه ما قبله من آخر سورة [الغاشية: ٢٥، ٢٦] وهو قوله تعالى ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ وتقديره لإيابهم إلينا وحسابهم علينا. وأخرج ابن المنذر عن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قرأ ﴿والفجر﴾ . إلى قوله سبحانه ـ **إذا يسر**﴾ فقال: هذا قسم على أن ربك لبالمرصاد وإلى أنه هو المقسم عليه ذهب ابن الأنباري. وعن مقاتل أنه هل في ذلك الخ وهل بمعنى أن وهو باطل رواية ودراية إذ يبقى عليه قسم بلا مقسم عليه. والمراد بعاد أولاد عاد بن عاص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام قوم هود عليه السلام سموا باسم أبيهم كما سُمّي بنو هاشم هاشماً وإطلاق الأب على نسله مجاز شائع حتى ألحق بعضه بالحقيقة وقد قيل لأوائلهم عاد الأولى، ولأواخرهم عاد الآخرة. قال عماد الدين بن كثير: كلما ورد في القرآن خبر عاد فالمراد بعاد فيه عاد الأولى إلاّ ما في سورة الأحقاف، ويقال لهم أيضاً إرم تسمية لهم باسم جدهم والتسمية بالجد شائعة أيضاً وهو اسم خاص بالأولى وعليه قول ابن الرقيات:

مجداً تليداً بناه أوله ... أدرك عاداً وقبلها إرما

ونحوه قوله زهير:

وآخرين ترى الماذي عدتهم ... من نسج داود أو ما أورثت إرما

فقوله تعالى ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد للإيذان بأنهم عاد الأولى تجوز أن يكون بدلاً، ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث باعتبار القبيلة، وصرف عاد باعتبار الحي، وقد يمنع من الصرف باعتبار القبيلة أيضاً. وقرأ الضحاك بذلك في إحدى الروايتين عنه ورجح اعتبار الصرف فيه بخفته لسكون وسطه، وقدر بعضهم مضافاً في الكلام أي سبط إرم وجعل إرم عليه اسم أمهم وهو قول فيه حكاه في القاموس. ووجه منع الصرف فيه ظاهر، وأبى بعضهم إلاّ جعله اسم جدهم ومعنى كونهم سبطه أنهم ولد ولده ولا يظهر على هذا علة منع صرفه ولعل ذلك هو الذي دعا إلى جعله اسم أمهم، لكن رأيت في تعليقات بعض الأفاضل على الحواشي العصامية على تفسير البيضاوي أن إرم إنما منع من الصرف سواء كان اسماً للقبيلة أم لجدها للعلمية والعجمة، وقال إنهما موجودتان في عاد أيضاً إلا أنه لكونه ثلاثياً ساكن الوسط يجوز فيه الأمران الصرف وعدمه، وزعم أن هذا هو الحق وبكونه اسم القبيلة قال مجاهد وقتادة وابن إسحاق ولا حاجة معه إلى تقدير مضاف، فقوله تعالى ﴿ذَاتِ العِمَادِ﴾ صفة لـ ﴿إرم﴾ نفسها والمراد ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ومنه قولهم رجل معمد وعمدان إذا كان طويلاً وروي هذا عن ابن عباس ومجاهد واشتهر أنه كان قد أحدهم اثني عشر ذراعاً وأكثر. وفي تفسير الكواشي قالوا: كان طول الطويل منهم أربعمائة ذراع، وكان أحدهم يأخذ الصخرة العظيمة فيقلبها على الحي فيهلكهم. عن قتادة وابن عباس في رواية عطاء المراد ذات الخيام والأعمدة وكانوا سيارة في الربيع، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم. وقال غير واحد: كانوا بدويين أهل عمدة وخيام يسكنونها حِلاً

وارتحالاً. وقيل: المراد ذات الرفعة أو ذات الوقار أو ذات الثبات وطول العمر والكل على الاستعارة. وقوله تعالى ﴿**الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ**﴾ صفة أخرى لها أي لم يخلق مثلهم في عظم الأجرام والقوة في بلاد الدنيا، وقد سمعت ما نقل عن الكواشي آنفاً وما ذكر فيه من أنه كان أحدهم الخ. جاء في حديث مرفوع أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معد يكرب. وقيل: إرم اسم مدينة لهم قال محمد بن كعب هي الإسكندرية. وقال ابن المسيب والمقبري: هي دمشق، وقيل اسم أرضهم وهي بين عمان وحضرموت وهي أرض رمال وأحقاف فقد قال سبحانه وتعالى ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ [الأحقاف: ٢١] وبهذا اعترض القول بأن مدينتهم الإسكندرية، والقول بأنها دمشق حيث إنهما ليستا من بلاد الأحقاف والرمال إلا أن يقال ما هنا عاد الأولى، وما في آية الأحقاف عاد الآخرة، ويلتزم عدم اتحاد منازلهما. وعلى القول بكونه اسم مدينتهم أو اسم أرضهم فهو بتقدير مضاف لتصحيح التبعية أي أهل إرم. وقيل: يقدر مضاف في جانب المتبوع أي بمدينة أو بأرض عاد إرم وهو كما ترى ومنع الصرف على الوجهين لما سمعت، والأكثرون على أنها اسم مدينة عظيمة في أرض اليمن والوصفان لها، والمراد ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين التي لم يخلق مثلها سعة وحسن بيوت وبساتين في بلاد الدنيا، ويروى أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها فسمع بذكر الجنة فقال: أبني مثلها فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة. ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره فقصّ عليه فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن قلابة، فقال: هذا والله ذلك الرجل. وخبر شداد المذكور أخوه في الضعف بل لم تصح روايته كما ذكره الحافظ ابن حجر فهو موضوع كخبر ابن قلابة. وروي عن مجاهد أن ﴿**إرم**﴾ مصدر أرم يأرم إذا هلك، فأرم بمعنى هلاك منصوب على نحو نصب المصدر التشبيهي مضاف إلى ﴿**ذات**﴾ و ﴿**التي**﴾ صفة ﴿**لذات العماد**﴾ مراداً بها المدينة وكيف فعل في قوة كيف أهلك فكأنه قيل: ألم تر كيف أهلك ربك عاداً كهلاك ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وهو قول غريب غير قريب. وقرأ الحسن «بعاد رام» بإضافة عاد إلى إرم فجاز أن يكون إرم جداً والوصفان لعاد، وأن يكون مدينة والوصفان لازم وجوز أن يكون لعاد. وقرأ ابن الزبير «بعاد أَرم» بالإضافة أيضاً إلاّ أن أَرِم بفتح الهمزة وكسر الراء، قيل: وهي لغة في المدينة لا غير. وعن الضحاك أنه قرأ «بعاد» مصروفاً وغير مصروف «أرم» بفتح الهمزة وسكون الراء للتخفيف وأصله أرم ككفخذ. وقرىء «إرم ذات» بإضافة إرم إلى ذات فقيل الإرم عليه العلم والمعنى بعاد أعلام ذات العماد وهي مدينتهم، و ﴿**التي**﴾ صفة ﴿**لذات العماد**﴾ على الأظهر. وعن ابن عباس أنه قرأ «أرم» بالتشديد فعلاً ماضياً ذات بالنصب على المفعول به أي جعل الله تعالى ذات العماد رميماً، ويكون أرم على ما في البحر بدلاً من فعل أو تبييناً له، والمراد بذات العماد عليه إما عاد نفسها ويكون فيه وضع المظهر موضع المضمر والنكتة فيه ظاهرة، وإما مدينتهم ويكون جعلها رميماً أي إهلاكها كناية عن جعلهم كذلك. وقرأ ابن الزبير «لَمْ يَخْلق» مبنياً للفاعل وهو ضميره عز وجل مثلها بالنصب على المفعولية، وعنه أيضاً «لم نخلق» بنون العظمة.

﴿وَثَمُودَ﴾ عطف على ﴿عَادٍ﴾ وهي قبيلة مشهورة سميت باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما ابنا عابر بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام، كانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام ومنع الصرف للعلمية والتأنيث. وقرأ ابن وثاب بالتنوين صرفه باعتبار الحي كذا قالوا، وظاهره أنه عربي. وقد صرح بذلك فقيل هو فعول من الثمد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ومنه قيل: فلان مثمود ثمدته النساء أي قطعن مادة مائه لكثرة غشيانه لهن، ومثمود إذا كثر عليه السؤال حتى نفدت مادة ماله. وحكى الراغب أنه عجمي فمنع الصرف للعلمية والعجمة ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ﴾ أي قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصخر كقوله تعالى ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾ [الشعراء: ١٤٩] قيل أول من نحت الحجارة والصخور والرخام ثمود وبنوا ألفاً وسبعمائة مدينة كلها بالحجارة، ولا أظن صحة هذا البناء ﴿بِالْوَادِ﴾ هو وادي القرى، وقرىء بالياء آخر الحروف، والباء للظرفية، والجار والمجرور متعلق بجابوا أو بمحذوف هو حال من الفاعل أو المفعول. وقيل: الباء للآلة أو السببية متعلقة بجابوا أي جابوا الصخر بواديهم أو بسببه، أي قطعوا الصخر وشقوه وجعلوه وادياً ومحلاً لمائهم فعل ذوي القوة والآمال وهو خلاف الظاهر وأيًّا ما كان فالجواب القطع والظاهر أنه حقيقة فيه تقول جبت البلاد أجوبها إذا قطعتها. قال الشاعر:

ولا رأيت قلوصاً قبلها حملت ... ستين وسقاً ولا جابت بها بلدا

ومنه الجواب لأنه يقطع السؤال. وقال الراغب: الجوب قطع الجوبة وهي الغائط من الأرض ثم يستعمل في قطع كل أرض، وجواب الكلام هو ما يقطع الجوب فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع لكنه خص بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب انتهى. فاختر لنفسك ما يحلو ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ وصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربون أوتادها في منازلهم أو لأنه كان يدق المعذب أربعة أوتاد ويشده بها مبطوحاً على الأرض فيعذبه بما يريد من ضرب أو إحراق أو غيره وقد تقدم الكلام في ذلك ﴿الَّذِين طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ إما مجرور على أنه صفة للمذكورين عاد ومن بعده أو منصوب أو مرفوع على الذم أي طغى كل طاغية منهم في البلاد، وكذا الكلام في قوله تعالى ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ أي بالكفر وسائر المعاصي ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ أي أنزل سبحانه إنزالاً شديداً على كل طائفة من أولئك الطوائف عقيب ما فعلت من الطغيان والفساد ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي سوطاً من عذاب على أن الإضافة بمعنى من، والعذاب بمعنى المعذب به، والمراد بذلك ما حل بكل منهم من فنون العذاب التي شرحت في سائر السور الكريمة. والسوط في الأصل مصدر من ساط يسوط إذا خلط، قال الشاعر:

أحارث إنا لو تساط دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمس دم دما

وشاع في الجلد المضفور والذي يضرب به، وسمي به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض، أو لأنه يخلط اللحم بالدم والتعبير عن إنزاله بالصب للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره فإنه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جار مجراه في السيلان كالحبوب والرمل وإفراغه بشدة وكثرة واستمرار، ونسبته إلى السوط مع أنه على ما سمعت ليس من هذا القبيل باعتبار تشبيهه في سرعة نزوله بالشيء المصبوب، وتسمية ما أنزل سوطاً قيل للإيذان بأنه على عظمه بالنسبة إلى ما أعد لهم في الآخرة كالسوط بالنسبة إلى سائر ما يعذب به في الكشف أن إضافة السوط إلى العذاب تقليل لما أصابهم منه، ولا يأبى ذلك التعبير بالصب المؤذن بالكثرة لأن القلة والكثرة من الأمور النسبية. وجوز أن يراد بالعذاب التعذيب والإضافة حينئذ على معنى اللام وأمر التعبير بالصب

والتسمية بالسوط على ما تقدم. والآية من قبيل قوله تعالى ﴿فأذاقها الله لباس الجوع﴾ [النحل: ١١٢] وجوز أن تكون الإِضافة كالإِضافة في لجين الماء أي فصب عليهم ربك عذاباً كالسوط على معنى أنواعاً من العذاب مخلوطاً بعضها ببعض اختلاط طاقات السوط بعضها ببعض، وأن يكون السوط مصدراً بمعنى المفعول والإِضافة كالإِضافة في جرد قطيفة أي فصب عليهم ربك عذاباً مسوطاً أي مخلوطاً، ومآله فصب أنواعاً من العذاب خلط بعضها ببعض. وفي الصحاح ﴿**سوط عذاب**﴾ أي نصيب عذاب ويقال شدته لأن العذاب قد يكون بالسوط، وأراد أن الغرض التصوير والأليق بجزالة التنزيل ما تقدم ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ تعليل لما قبله وإيذان بأن كفار قومه ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب أضرابهم المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإِضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، والمرصاد المكان الذي يقوم به الرصد ويترقبون فيه مفعال من رصده كالميقات من وقته. وفي الكلام استعارة تمثيلية شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العصاة على ما روي عن الضحاك مترقباً لها ومجازياً على نقيرها وقطميرها بحيث لا ينجو منه سبحانه أحد منهم بحال من قعد على الطريق مترصداً لمن يسلكها ليأخذه فيوقع به ما يريد، ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر والآية على هذا وعيد للعصاة مطلقاً. وقيل: هي وعيد للكفرة وقيل: وعيد للعصاة ووعد لغيرهم وهو ظاهر قول الحسن، أي يرصد سبحانه أعمال بني آدم. وجوز ابن عطية كون المرصاد صيغة مبالغة كالمطعام والمطعان، وتعقبه أبو حيان بأنه لو كان كما زعم لم تدخل الباء لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة، وأجيب بأنها على ذلك تجريدية نعم يلزمه إطلاق المرصاد على الله عز وجل وفيه شيء.

وقوله تعالى ﴿**فأَمَّا الإِنْسَانُ**﴾ الخ متصل بما عنده كأنه قيل إنه سبحانه لبالمرصاد من أجل الآخرة فلا يطلب عز وجل إلاّ السعي لها، فأما الإِنسان فلا يهمه إلاّ الدنيا ولذاتها، فإن نال منها شيئاً رضي الله وإلاّ سخط وكان اللائق أن لا يهمه إلا ما يطلبه الله عز وجل ولا يكون حاله ذلك. وقيل: هو متصل به متفرع عليه على معنى فالإِنسان يؤاخذ لا محالة لأنه بين غنى مهلك موجب للتكبر والافتخار بالدنيا، وبين فقر لا يصبر عليه ويكفر لأجله بالجزع والقول بما لا ينبغي وهو كما ترى ﴿**إِذَا مَا ابتلاهُ رَبُّهُ**﴾ أي عامله معاملة من يبتليه بالغنى واليسار ليرى هل يشكر أم لا. والفاء في قوله سبحانه ﴿**فأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ**﴾ تفسيرية فإن الإِكرام والتنعيم عين المراد بالابتلاء، ولما كان الإكرام والتنعيم في حكم شيء واحد اقتصر على قوله ﴿**أكرمن**﴾ في قوله سبحانه ﴿**فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ**﴾ ولم يضم إليه ونعمني. وهذه الجملة خبر للمبتدأ الذي هو الإِنسان، والفاء لما في أما من معنى الشرط والظرف أعني إذا متعلق بيقول وهو على نية التأخير ولا تمنع الفاء من ذلك كما صرح به الزمخشري وغيره من متقدمي النحاة وتبعهم مَن بعدهم كأبي حيان والسمين والسفاقسي مع جمع غفير من المفسرين، وهو كما قال الشهاب الحق الذي لا محيد عنه، وخالفهم في ذلك الرضي ومن تبعه كالبدر الدماميني في شرح المغني، فقالوا: إنما يجوز تقديم ما بعد الفاء عليها إذا كان المقدم هو الفاصل بين أما والفاء لما يتعلق بتقديمه من الأغراض فإن كان ثمت فاصل آخر امتنع تقديم غيره فيمتنع أما زيد طعامك فآكل وإن جاز أما طعامك فزيد آكل، وقالوا في ذلك أنهم لما التزموا حذف الشرط لزم دخول أداته على فاء الجواب وهو مستكره فدعت الضرورة للفصل بينهما بشيء مما بعد الفاء والفاصل الواحد كاف فيه فيجب الاقتصار عليه. وزعم الجلبي محشي المطول أن هذا متفق عليه فرد به على المفسرين إعرابهم السابق وقال إنه خطأ، والصواب أن يجعل الظرف متعلقاً بمقدر وهو ابتدأ في الحقيقة، والتقدير فأما شأن الإِنسان إذا الخ. فالظرف

من تتمة الجزء المفصول وبه ليس فاصلاً ثانياً كقولك: أما احسان زيد إلى الفقير فحسن، ويريد على تقديره أنه لا يصح وقوع جملة يقول خبراً عن الشأن إلاّ بتعسف كأن يكون الفعل بتأويل المصدر وإن لم تكن معه في اللفظ أن المصدرية كما قيل في:

تسمع بالمعيدي خير من أن تراه

وهو فرار من السحاب إلى الميزاب وذهب أبو البقاء إلى أن ﴿إذا﴾ شرطية وقوله تعالى ﴿فيقول﴾ جوابها والجملة الشرطية خبر الإنسان ويلزمه حذف الفاء بدون القول وقد قيل إنه ضرورة. وقوله عز وجل ﴿وأمّا إذَا مَا ابتلاه﴾ عامله معاملة من يبتليه ويختبره بالحاجة والفقر ليرى هل يصبر أم لا ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رزقهُ فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنِ﴾ بتقدير وأما هو أي الإنسان إذا ما ابتلاه الخ ليصح التفصيل ويتم التوازن، وبقية الكلام فيه كما في سابقه. والظاهر أن كلتا الجملتين متضمنة لإنكار قول الإنسان الذي تضمنته وإنكار قوله إذا ضيق عليه رزقه ﴿ربي أهانن﴾ لدلالته على قصور نظره وسوء فكره حيث حسب أن تضييق الرزق إهانة مع أنه قد يؤدي إلى كرامة الدارين ولعدم كونه إهانة أصلاً لم يقل سبحانه في تفسير الابتلاء فأهانه «وقدر عليه رزقه» نظير ما قال سبحانه أولاً ﴿فأكرمه ونعمه﴾ وإنكار قوله إذا أكرم ربي أكرمني مع قوله تعالى ﴿فأكرمه﴾ أولاً من حيث إنه أثبت إكرام الله تعالى له على خلاف ما أثبت الله تعال وهو قصد أن الله تعالى أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقاً ومستوجباً قصداً جارياً على ما كانوا عليه من افتخارهم وزعمهم جلالة أقدارهم. والحاصل أن المنكر كونه عن استحقاق لحسب أو نسب في المفصل ما يدل على أن أصل الإكرام منكر لا كونه عن استحقاق، وإنكار أصل الإهانة يعضده. ووجهه ما أثبته تعالى من الإكرام أن الله عز وجل أثبت الإكرام بإيتاء المال والتوسعة وهو جعله إكراماً كلياً مثبتاً للزلفى عنده تعالى فأنكر أنه ليس من ذلك الإكرام في شيء، وجوز أن يكون الإنكار للإهانة فقط يعني أنه إذا تفضل عليه بالخير وأكرم به اعترف بتفضل الله تعالى وإكرامه، وإذا لم يتفضل عليه سمى ترك التفضل هواناً وليس به قيل، ويعضده ذكر الإكرام في قوله تعالى ﴿فأكرمه﴾ وفي الآية مع ما بعد شمة من أسلوب قوله تعالى ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١] ولا يخفى أن الوجه هو الأول. وقرأ ابن كثير «أكرمني» و «أهانني» بإثبات الياء فيهما ونافع بإثباتها وصلاً وحذفها وقفاً وخير في الوجهين أبو عمرو وحذفها باقي السبعة فيهما وصلاً ووقفاً من حذفها وقفاً سكن النون فيه. وقرأ أبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلاف عنه وابن عامر «فقدَّر» بتشديد الدال للمبالغة.

﴿كَلاَّ﴾ ردع للإنسان عن قوليه المحكيين وتكذيب له فيهما لا عن الأخير فقط كما في الوجه الأخير، وقد نص الحسن على ما قلنا وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المعنى لم أبتله بالغنى لكرامته عليّ ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ بل ذلك لمحض القضاء والقدر. وقوله سبحانه ﴿بَلْ لا تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ﴾ الخ انتقال وترق من ذمه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل والالتفات إلى الخطاب لتشديد التقريع وتأكيد التشنيع. وقيل: هو بتقدير قل فلا التفات. نعم فيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه والجمع باعتبار معنى الإنسان إذ المراد هو الجنس أي بل لكم أفعال وأحوال أشد شراً مما ذكر وأدل على تهالككم على المال حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال فلا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرة به والإحسان إليه. وفي الحديث «أحب البيوت إلى الله تعالى بيت فيه يتيم مكرم». وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدري وأبو

عمرو «لا يكرمون» بياء الغيبة ﴿ولا تحاضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتحاضون أي ولا يحض ويحث بعضكم بعضاً ﴿عَلى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي على إطعامه فالطعام مصدر بمعنى الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء. وزعم أبو حيان أن الأولى أن يراد به الشيء المطعوم، ويكون الكلام على حذف مضاف أي على بذل طعام المسكين، والمراد بالمسكين ما يعم الفقير. وقرأ عبد الله وعلقمة وزيد بن عليّ وعبد الله بن المبارك والشيرزي عن الكسائي كقراءة الجماعة إلاّ أنهم ضموا تاء «تُحَاضون» من المحاضة. وقرأ أبو عمرو ومن سمعت الحسن ومن معه «ولا يحضون» بياء الغيبة ولا ألف بعد الحاء، وباقي السبعة بتاء الخطاب كذلك وكذا الفعلان بعد والفعل على القراءتين جوز أن يكون متعدياً ومفعوله محذوف. فقيل أنفسهم أو أنفسكم، وقيل أهليهم أو أهليكم، وقيل أحداً. وجوز وهو الأولى أن يكون منزلاً منزلة اللازم للتعميم. ﴿وَتأكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي الميراث وأصله وارث فأبدلت الواو تاءً كما في تخمنة وتكأة ونحوهما ﴿أكْلاً لَمًّا﴾ أي ذا لَمٍّ أو هو نفس اللم على المبالغة واللم الجمع، ومنه قوله النابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمُّه ... على شعث أي الرجال المهذب

والمراد به هنا الجمع بين الحلال والحرام وما يحمد وما لا يحمد، ومنه قول الحطيئة:

إذا كان لما يتبع الذم ربه ... فلا قدس الرحمن تلك الطواحنا

يعني إنكم تجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم. ويروى أنهم كانوا لا يورِّثون النساء ولا صغار الأولاد فيأكلون نصيبهم. ويقولون: لا يأخذ الميراث إلاّ من يقاتل ويحمي الحوزة هذا وهم يعلمون من شريعة إسماعيل عليه السلام أنهم يرثون فاندفع ما قيل إن السورة مكية وآية المواريث مدنية ولا يعلم الحل والحرمة إلاّ من الشرع، فإن الحسن والقبح العقليين ليسا مذهباً لنا. وقيل يعني تأكلون ما جمعه الميت الموروث من حلال وحرام عالمين بذلك فتلمون في الأكل بين حلاله وحرامه. وفي الكشاف يجوز أن يذم الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً واسعاً جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ونحوها كما يفعله الورّاث الباطلون، وتعقب بأنه غير مناسب للسياق. ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيراً كما قال ابن عباس وأنشد قول أمية:

إن تغفر اللهم تغفر جما ... وأي عبد لك لا ألما

والمراد أنكم تحبونه مع حرص وشره ﴿كلاَّ﴾ ردع لهم عن ذلك وقوله تعالى ﴿إذا دُكَّتِ الأرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ إلى آخره استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلاً للردع. والدك قال الخليل: كسر الحائط والجبل ونحوها وتكريره للدلالة على الاستيعاب فليس الثاني تأكيد للأول بل ذلك نظير الحال في نحو قولك: جاؤوا رجلاً رجلاً، وعلمته الحساب باباً باباً أي إذا دكت الأرض دكاً متتابعاً حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور وغيرها حين زلزلت المرة بعد المرة وصارت هباء منثوراً. وقال المبرد: الدك حط المرتفع بالبسط والتسوية، واندكّ سنام البعير إذا انفرش في ظهره، وناقة دكّاء إذا كانت كذلك، والمعنى عليه إذا سويت تسوية بعد تسوية ولم يبق على وجهها شيء حتى صارت كالصخرة الملساء، وأيًّا ما كان فهو على ما قيل عبارة عما عرض للأرض عند النفخة الثانية ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قال منذر بن سعيد: معناه ظهر سبحانه للخلق هنالك وليس ذلك بمجيء نقلة وكذلك مجيء الطامة والصاخة. وقيل: الكلام على حذف المضاف للتهويل، أي وجاء أمر ربك وقضاؤه سبحانه واختار جمع أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره تعالى وتبين آثار قدرته

عز وجل وسلطانه عز سلطانه مثلت حاله سبحانه في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر لمحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم، وأنت تعلم ما للسلف في المتشابه من الكلام ﴿**والْمَلَكُ**﴾ أي جنس الملك فيشتمل جمع ملائكة السماوات عليهم السلام ﴿**صَفًّا صَفًّا**﴾ أي مصطفين أو ذوي صفوف فإنه قيل: ينزل يوم القيامة ملائكة كل سماء فيصطفون صفاً بعد صف بحسب منازلهم ومراتبهم محدقين بالجن والإنس، وقيل: يصطفون بحسب أمكنة أمور تتعلق بهم وهو قريب مما ذكر. وروي أن ملائكة كل سماء تكون صفاً حول الأرض فالصفوف سبعة على ما هو الظاهر. وقال بعض الأفاضل: الظاهر أن الملك أعم من ملائكة السماوات وغيرها وتعريفه للاستغراق وادعى أن اصطفافهم بحسب مراتبهم اصطفاف أهل الدنيا في الصلاة وظاهره أنه اصطفاف من غير تحديق ورأيت غير أثر في أنهم يصطفون محدقين ﴿**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**﴾ قيل هو كقوله تعالى ﴿وبرزت الجحيم﴾ [الشعراء: ٩١] لمن يرى على أن يكون مجيئها متجوزاً به عن إظهارها واختبر أنه على حقيقته فقد أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». وفي رواية بزيادة «حتى تنصب عن يسار العرش لها تغيظ وزفير» وجاء في بعض الآثار أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي ﷺ فناجاه ثم قام رسول الله ﷺ الصلاة والسلام منكسر الطرف فسأله عليّ كرم الله وجهه تعالى فقال ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿**كلا إذا دكت الأرض**﴾ الآية. فقال له عليّ كرم الله تعالى وجهه: كيف يجاء بها؟ فقال رسول الله ﷺ: «تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده سبعون ألف ملك، فبينما هم كذلك إذ شردت عليهم شردة انفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها فأخذوها لأحرقت من في الجمع» وفي رواية لولا أن الله تعالى حبسها لأحرقت السماوات والأرض، وتأويل كل ما ذكر ونحوه مما ورد وحمله على المجاز لا يدعو إليه إلا استحالة الانتقال الذي يقتضيه المجيء الحقيقي على جهنم وهو لعمري غير مستحيل، فيجوز أن تخرج وتنتقل من محلها في المحشر ثم تعود إليه، والحال في ذلك اليوم وراء ما تتخيله الأذهان.

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ بدل من ﴿**إذا دكت**﴾ وظاهر كلام الزمخشري أن العامل فيه هو العامل نفسه في المبدل منه أعني قوله تعالى ﴿**يَتَذَكَّرُ الإنسانُ**﴾ وهو قول قد نسب إلى سيبويه. وفي البحر المشهور خلافه وهو أن البدل على نية تكرار العامل والظاهر عندي الأول ويتذكر من الذكر ضد النسيان أي يتذكر الإنسان ما فرط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه، أو بإحضار الله تعالى إياه في ذهنه وإخطاره له وإن لم يشاهد بعد أثراً أو بمعاينة عينه بناءً على أن الأعمال تتجسم في النشأة الآخرة فتبرز بما يناسبها من الصور حُسناً وقبحاً أو من التذكر بمعنى الاتعاظ، أي يتعظ بما يرى من آثار قدرة الله عز وجل وعظيم عظمته تعالى وشأنه. وقوله تعالى ﴿**وأنّى لَهُ الذِّكرَى**﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنه ليس بتذكر حقيقة لعرائه عن الجدوى لعدم وقوعه في أوانه و ﴿**أنّى**﴾ خبر مقدم و ﴿**الذكرى**﴾ مبتدأ و ﴿**له**﴾ متعلق بما تعلق به الخبر، أي ومن أين تكون له الذكرى وقد فات أوانها، وقيل: هناك مضاف محذوف أي وأنى له منفعة الذكرى ولا بد من تقديره لئلا يكون تناقض وقد علمت أن هذا يتحقق بما قرر أولاً على أنه إذا جعل اختصاص اللام مقتصراً على النافع استقام من غير تقدير، ويكون إنكار أن تكون الذكرى له لا عليه. وأما كونه حكاية لما كان عليه في الدنيا من عدم الاعتبار والاتعاظ فليس بشيء. واستدل بالآية على أن التوبة من حيث هي توبة غير واجبة القبول عقلاً كما زعم

المعتزلة بناء على وجوب الأصلح عندهم، وقيل في توجيهه إنه لو وجب قبولها لوجب قبول هذا التذكر فإنه توبة إذ هي كما بيّن محله في الندم على المعصية من حيث هي معصية، والعزم على أن لا يعود لها إذا قدر عليها ولم يعتبر أحد في تعريفها كونها في الدنيا وإن كانت النافعة منها لا تكون إلاّ فيها وهذا التذكر هو عين الندم المذكور. وقد صرح الضحاك كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم بأنه توبة ولم تقبل لعدم ترتب المنفعة عليه التي هي من لوازم القبول، واعترض بأن المعتزلة إنما يقولون بوجوب قبولها بشرط عدم رفع التكاليف وقيل إن تذكره ليس من التوبة في شيء فإنه عالم بأنها إنما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى ﴿**يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**﴾ ويعلم ما فيه مما تقدم من توجيه الاستدلال فلا تغفل. وهذه الجملة بدل اشتمال من يتذكر أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكره؟ فقيل: يقول يا ليتني الخ. واللام للتعليل والمراد بحياته حياته في الآخرة، ومفعول ﴿**قدمت**﴾ محذوف فكأنه قال: يا ليتني قدمت لأجل حياتي هذه أعمالاً صالحة انتقع بها فيها. وقيل: اللام للتعليل إلاّ أن المعنى يا ليتني قدمت أعمالاً صالحة لأجل أن أحيا حياة نافعة، وقال ذلك لأنه لا يموت ولا يحيا حينئذ وهو كما ترى. ويجوز أن تكون اللام توقيتية مثلها في نحو كتبته لخمس عشرة ليلة مضين من المحرم، وجئت لطلوع الشمس ويكون المراد بحياته حياته في الدنيا أي يا ليتني قدمت وعملت أعمالاً صالحة وقت حياتي في الدنيا لأنتفع بها اليوم، وليس في هذا التمني شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله وإنما يدل على اعتقاد كونه متمكناً من تقديم الأعمال الصالحة، وإما أن ذلك بمحض قدرته تعالى أو بخلق الله عز وجل عند صرف قدرته الكاسبة إليه فكلا وزعمه الزمخشري دليلاً على الاستقلال ورد به على المجبرة وهم عنده غير المعتزلة زعماً منه المنافاة بين التمني والحجر. وقد علمت أنه لا دلالة على ذلك. وفي الكشف أن التمني قد يقع على المستحيل على أنه حالتئذ كالغريق هذا وأهل الحق لا يقولون بسلب الاختيار بالكلية.

﴿**فَيَوْمَئِذٍ**﴾ أي يوم إذ يكون ما ذكر من الأحوال والأقوال ﴿**لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يوثِقُ وثاقهُ أَحَدٌ**﴾ الهاء إما لله عز وجل أي لا يتولى عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه أحد سواه عز وجل وكأنه قيل: لا يفعل عذاب الله تعالى ووثاقه ولا يباشرهما أحد، وذلك لأن الفعل في ضمن كل فعل خاص واستعمل ذلك استعمالاً شائعاً في مثل:

وقد حيل بين العير والنزوان

وإن نظن إلاّ ظناً فالعذاب مفعول به وكذا الوثاق، وفيه تعظيم عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه لهذا الإنسان الذي شرح من أحواله ما شرح على طريق الكناية. فما ادعاه ابن الحاجب من عدم قوة المعنى على تقدير عود الضمير إليه تعالى بناء على فوات التعظيم الذي يقتضيه السياق للغفول عن نكتة الكناية، وإما للإنسان الموصوف والإضافة إلى المفعول أي لا يعذب ولا يوثق أحدٌ من الزبانية أحداً من أهل النار مثل ما يعذبونه ويوثقونه كأنه أشدهم عذاباً ووثاقاً لأنه أشدهم سيئات أفعال وقبائح أحوال وهو وجه حسن بل هو أرجح من الأول على ما سنشير إليه إن شاء الله تعالى. وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو: «لا يعذب» «ولا يوثق» بالبناء للمفعول فالهاء في عذابه ووثاقه للإنسان الموصوف أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه لتناهيه في كفره وشقاقه ونصب العذاب على المصدرية واقع موقع التعذيب إما لأنه بمعناه في الأصل كالسلام بمعنى

التسليم، ثم نقل إلى ما يعذب به أو لأنه وضع موضعه كما يوضع العطاء موضع الإِعطاء وكذلك الوثاق. وجوز أن يكون المعنى لا يحمل عذاب الإِنسان أحد ولا يوثق وثاقه أحد كقوله تعالى ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤، الإِسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧] والعذاب عليه جار على المتعارف والنصب على تضمين التعذيب معنى التحميل والأول أنسب بمقام التغليظ على هذا الإِنسان المفرط أو أن التمكن والوجه الثاني للقراءة الأولى مطابق لهذا كما لا يخفى، والمراد من أنه لا يعذب أحد مثل عذابه أنه لا يعذب أحد من جنسه كالعصاة كذلك فلا يلزم كونه أشد عذاباً من إبليس ومن في طبقته، ثم إن الظاهر أن المراد جنس المتصف بما ذكر وقيل: المراد به أمية بن خلف وقيل أبيّ بن خلف وهو خلاف الظاهر وإن قيل إن الآية نزلت فيمن ذكر وأما القول بأن هذا العذاب الموثق إبليس عليه اللعنة فليس بشيء إذ لا يقال له إنسان، وكون الضمير له وإن لم يسبق له ذكر لا للإِنسان المذكور في قوله تعالى ﴿**يومئذ يتذكر الإِنسان**﴾ الخ مما لا ينبغي أن يلتفت إليه. وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه «وِثاقه» بكسر الواو وقوله تعالى:

﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الـمُطْمَئِنَّةُ**﴾ الخ حكاية لأحوال من اطمأن بذكر الله تعالى وطاعته عز وجل إثر حكاية من اطمأن بالدنيا وسكن إليها. وذكر أن على إرادة القول أي يقول الله تعالى ﴿**يا أيتها النفس**﴾ الخ. إما بالذات كما كلم سبحانه موسى عليه السلام أو على لسان الملك واستظهر أن ذل القول عند تمام الحساب. ولينظر التفاوت ما بين ذلك الإِنسان وهذه النفس ذاك يقول ﴿**يا ليتني قدمت لحياتي**﴾ وهذه يقول الله تعالى لها ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة**﴾ الخ وكأنه للإِيذان بغاية التباين لم يذكر القول وتعطف الجملة على الجملة السابقة. والنفس قيل بمعنى الذات ووصفت بالاطمئنان بذلك لأنها لترقى بقوتها العاقلة في معارج الأسباب والمسببات إلى المبدأ المؤثر بالذات جلت صفاته وأسماؤه فتضطرب وتقلق قبل الوصول إلى معرفته تعالى، فإذا وصلت إليه عز وجل اطمأنت واستغنت به سبحانه عن وجودها وسائر شؤونها ولم تلتفت إلى ما سواه جل وعلا بالكلية وقيل: هي النفس المؤمنة المطمئنة إلى الحق الواصلة إلى ثلج اليقين وبرودته بحيث لا يخالطها شك ما ولا يمازجها سخونة اضطراب القلب في الحق أصلاً وهو وجه حسن والارتباط عليه أن هذه النفس هي المتعظة الذاكرة على خلاف الإِنسان الموصوف فيما قبل فإن التذكر على قدر قوة اليقين، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ [الزمر: ٩] وقيل هي الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن يوم القيامة، أعني النفس المؤمنة اليوم المتوفاة على الإِيمان. وأيد بقراءة أبيّ ﴿**يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة**﴾ وكأنه لأن الوصفين يعتبر تناسبهما في الأكثر وهي على هذا تقابل السابق وهو المتحسر والمتحزن. وقرأ زيد بن علي «يا أيها» بغير تاء وذكر صاحب البديع أن أيا قد تذكر مع المنادى المؤنث قيل ولذلك وجه من القياس وذلك أنها كما لم تثن ولم تجمع في نداء المثنى والمجموع فكذلك لم تؤنث في نداء المؤنث، واعتبار النفس ها هنا مذكرة ثم مؤنثة مما لا تلتفت إليه النفس المطمئنة ﴿**ارْجَعي**﴾ أي من حيث حوسبتِ ﴿**إِلى رَبِّكِ**﴾ أي إلى محل عنايته تعالى وموقف كرامته عز وجل لك أولاً وهذا لأن للسعداء قبل الحساب كما يفهم من الأخبار موقفاً في المحشر مخصوصاً يكرمهم الله تعالى به لا يجدون فيه ما يجده غيرهم في مواقفهم من النصب، ومنه ينادي الواحد بعد الواحد للحساب فمتى كان هذا القول عند تمام الحساب اقبضي أن يكون المعنى ما ذكر الواحد بعد الواحد للحساب فمتى كان هذا القول عند تمام الحساب اقبضي أن يكون المعنى ما ذكر ويجوز أن يكون المعنى ارجعي بتخلية القلب عن الأعمال والالتفات إليها والاهتمام بأمرها أتقبل أم لا، أي إلى

ملاحظة ربّك والانقطاع إليه وترك الالتفات إلى ما سواه عز وجل كما كنت أولاً كان النفس المطمئنة لما دعيت للحساب شغل فكرها، وإن كانت مطمئنة بمقتضى الطبيعة وحال اليوم بأمر الحساب وما ينتهي إليه وأنه ماذا يكون حال أعمالها أتقبل أم لا، فلما تم حسابها وقبلت أعمالها قيل لها ذلك تطييباً لقلبها بأن الأمر قد انتهى. وفرغ منه وليس بعد إلا كل خير. ونداؤها بعنوان الاطمئنان لتذكيرها بما يقتضي الرجوع نظير قولك لشجاع مشهور بالشجاعة أحجم في بعض المواقف يا أيها الشجاع أقدم ولا تحجم، والظاهر أنه على الأول لا يناسبها ولا يخفى ما في قوله سبحانه ﴿إلى ربك﴾ على الوجهين من مزيد اللطف بها ولذا لم يقل نحو ارجعي إلى الله تعالى أو إليّ ﴿رَاضِيَةً﴾ أي بما تؤتينه من النعم التي لا تتناهى وقد يقال راضية بما نلتيه من خفة الحساب وقبول الأعمال وليس بذاك ﴿مَرْضِيَةً﴾ أي عند الله عز وجل قيل: المراد راضية عن ربك مرضية عنده، وزعم أنه الأظهر واعترض بأنه غير مناسب للسياق وفيه نظر. والوصفان منصوبان على الحال والظاهر أن الحال الأولى مقدرة وقيل مقارنة، وذكر الحال الثانية من باب الترقي فقد قال سبحانه وتعالى ﴿رضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في زمرة عبادي الصالحين المخلصين لي وانتظمي في سلكهم وكوني في جملتهم ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ عطف على الجملة قبلها داخلة معها في حيّز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيب ما قبلها من غير تراخ وكأن الأمر بالدخول في جملة عباد الله تعالى الصالحين إشارة إلى السعادة الروحانية لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح، والأمر بدخول الجنة إشارة إلى السعادة الجسمانية ولفضل الأولى على الثانية قدم الأمر الأول وجيء بالثاني على وجه التتميم. ونكتة الالتفات فيهما ظاهرة بأدنى التفات. وتعدى الدخول أولاً بفي وثانياً بدونها قال أبو حيان: لأن المدخول فيه إن كان غير ظرف حقيقي تعدى إليه في الاستعمال بفي، تقول: دخلت في الأمر ودخلت في غمار الناس وإذا كان ظرفاً حقيقياً تعدى إليه في الغالب بغير وساطتها فلا تغفل. وقيل المراد ارجعي إلى موعد ربك واستظهر أن المراد بموعده تعالى على تقدير كون القول المذكور بعد تمام الحساب ما وعده سبحانه من الجنة والكون مع عباده تعالى الصالحين والفاء تفسيرية، واستشكل عليه الأمر بالرجوع إذ يقتضي أن تكون الجنة مقراً للنفس قبل ذلك، وأجيب بتحقق هذا المقتضى بناء على وجودها بالقوة في ظهر آدم عليه السلام حين كان في الجنة وقد قيل نحو هذا في قوله تعالى ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ [القصص: ٨٥] على ما روي عن أمير المؤمنين عليّ كرم الله تعالى وجهه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن المراد بالمعاد الجنة دون مكة وأنت تعلم أن هذا على ما فيه لا يتم إلاّ على القول بأن جنة آدم عليه السلام هي الجنة التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة لا جنة أخرى كانت في الأرض، والخلاف في ذلك قوي كما لا يخفى على من راجع كتاب مفتاح السعادة للعلامة ابن القيم واطلع على أدلة الطرفين. وقيل: المراد ارجعي إلى أمر ربك، واستظهر أن المراد بالأمر على ذلك التقدير واحد الأمور ويفسر بمعاملة الله تعالى إياها بما ليس فيه ما يشغل بالها أو بتمييزها بموقف كريم أو بنحو ذلك مما يتحقق معه ما يقتضيه ظاهر الرجوع، وقيل: المراد ارجعي إلى كرامة ربك ويراد جنس كرامته سبحانه والرجوع إليه باعتبار أنها كانت بعد الموت في البرزخ أو بعد البعث وقبل الحساب في نوع منه والفاء عليه قيل تفسيرية أيضاً. وعن عكرمة والضحاك أن ذلك القول عند البعث، فقيل النفس بمعنى الذات أيضاً، والمراد بالرب هو الله عز وجل والكلام على حذف مضاف ولا يقدر محل كرامته تعالى مراداً به

الموقف الخاص على ما سمعت لأنه إنما يكون لها بعد. وقيل النفس بمعنى الروح، والمراد بالرب الصاحب وفسر بالجسد وباقي الآية على حالة أي ارجعي إلى جسدك كما كنت في الدنيا فادخلي بعد الرجوع إليه في جملة عبادي وادخلي دار ثوابي، وقيل المراد بالنفس والرب ما ذكر وقوله تعالى ﴿**في عبادي**﴾ على حذف مضاف أي فادخلي في أجساد عبادي وجاء هذا في رواية عن ابن عباس وابن جبير، ولا يضر الإفراد أولاً والجمع ثانياً لأن المعنى على الجنس. وقال ابن زيد وجماعة إن ذلك القول عند الموت وأيّد بما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن جبير قال: قُرئت عند النبي ﷺ ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة**﴾ الآية فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: إن هذا لحسن فقال رسول الله ﷺ: «أما إن الملك سيقولها لك عند الموت» وجاء نحو هذا من رواية الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن عامر عن الصديق رضي الله تعالى عنه. والنفس عليه بمعنى الروح والمعنى على ما قيل ارجعي بالموت إلى عالم قدس ربك راضية بما تؤتين من النعيم أو راضية عن ربك مرضية عنده تعالى، فادخلي في زمرة عبادي المقربين سكنة حظائر القدس، وادخلي جنتي التي أعددتها لذوي النفوس المطمئنة، وهذان الدخولان يعقبان الرجوع إلاّ أن الدخول الأول يعقبه بلا تراخ قبل يوم القيامة، والثاني يعقبه بتراخ لأنه يوم القيامة إن أريد الدخول الجنة دخولها على وجه الخلود إلا أن الأمر لتحققه يجوز تعقيبه بالفاء، وجوز أن يكون تعقيب الأمرين على هذا النمط إن أريد بالدخول في عبادة تعالى انتظامها في سلك العباد الصالحين المخلصين من جنسها، ويجوز على إرادة هذا التعقيب أن يراد فادخلي في أجساد عبادي. وجوز أن يكون تعقيب الأمرين بلا تراخ إن أريد بالدخول في العباد الدخول في زمرة المقربين من سكنة حظائر القدس وبالدخول في الجنة الدخول لا على وجه الخلود بل لنوع من التنعم إلى أن تقوم الساعة، ففي الحديث أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور في الجنة، وفي بعض الآثار إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة أي نصف جنته التي وعد دخولها يوم القيامة وذكر في وجه إدخالها مع الأرواح القدسية كالمرايا المصقولة فإذا انضم بعضها إلى بعض تعاكست أشعة أنوار المعارف فيظهر لكل منها ما يكملها فيكون سبباً أنها لتكامل السعادات وتعاظم الدرجات وهو عندي كلام خطابي، وعن بعض السلف ما يؤيد بعض هذه الأوجه.

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح أنه قال في الآية ﴿**ارجعي إلى ربك**﴾ هذا عنوان الموت، ورجوعها إلى ربها خروجها من الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل لها ادخلي في عبادي وادخلي جنتي وقيل: إن هذا القول بعد الموت وقبل القيامة، والمراد برجوعها إلى ربها رجوعها إلى جسدها لسؤال الملكين. أخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية إن المؤمن إذا مات أريَ منزله من الجنة فيقول تبارك وتعالى: يا ايتها النفس المطمئنة عندي ارجعي إلى جسدك الذي خرجت منه راضية بما رأيت من ثوابي مرضياً عنك حتى يسألك منكر ونكير، وقيل إنه في مواطن ثلاثة. أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال في الآية: بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع وتفسر عليه بما ينطبق على الجميع. وقيل: يجوز أن يكون ذلك في سائر أوقات النفس في حياتها الدنيا والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرب الأمر بالرجوع إليه تعالى في كل أمر من الأمور، والمراد بالأمر بالدخول في العباد الأمر بالدخول في زمرة العباد الخلص الذي ليس للشيطان عليهم سلطان بالإكثار من العمل الصالح، وبالأمر بالدخول في الجنة الأمر بالدخول فيها بالقوة القريبة فكأنه سبحانه بعد أن بالغ جل وعلا في سوء حال الامارة

ووعيدها خاطب المطمئنة بذاك وأرشدها سبحانه إلى ما فيه صلاحها ونجاتها ولا يخفى ما فيه فلا ينبغي أن يعد وجهاً، وأيًا ما كان من الأوجه فالظاهر العموم فيها وإن أخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه حين اشترى بئر رومة وجعلها سقاية للناس، وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وقيل نزلت في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلتك فحول الله تعالى وجهه نحوها فلم يستطع أحد أن يحوله بعد. فتفسير النفس المذكورة بأحد هؤلاء المذكورين كما نقل عن بعض من باب التمثيل وأن صورة السبب قطعية الدخول وينبغي أن يتحمل قول ابن عباس في تلك النفس كما أخرجه عنه ابن مردويه هو النبي ﷺ على نحو ذلك، وأشعرت الآية على بعض أوجهها بأن الأرواح مخلوقة قبل الأبدان ومقرها إذ ذاك في عالم الملكوت، والخلاف في المسألة شهير وجمهور المتكلمين على أنها مخلوقة عند استعداد الأبدان لها وكذا أفلاطون وأصحابه. وقرأ ابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح وأبو شيخ واليماني في «عبدي» على الإفراد واستظهر أن المراد الجنس كما في النفس. وللسادة الصوفية قدست نفوسهم كلام طويل في تقسيم مراتب النفس وقالوا إن الآية متضمنة لمراتب ثلاث منها المطمئنة والراضية والمرضية وفسروا كلا بما فسروه فمن أراده فليرجع إليه في كتبهم، وأنا أقول كما علم رسول الله ﷺ بعض الصحابة على ما أخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه: «اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك».